روايات الهلال

أمسيات قرب قرية ديكانكا

الجزء الأول

نيقولاى جوجول



روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٦٤ – ابريل ١٩٧٩ – جمادى الاولى ١٣٩٩
No. 364 — April 1979

رئيسة مجلس الإدارة : **أمينة السعيد**

نائب رئيس مجلس الإدارة : **صبرى أبو المجد**

رئيس التحرير : **الدكتور حسين مؤنس**

سكرتير التحرير : **موسى عميد**

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

أسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من «روايات الهلال» الشهرية اعتبارا من شهر يناير عام ١٩٧٩ :

بسعر ٢٠ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ٣٠٠ ق . س « ثلاثمائة قرشا سوريا »
لبنان ٢٥٠ ق.ل «مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »
الكويت ٣٥٠ فلسا «ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلسا عراقيا »
السعودية ٤ر٥ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب القاهرة .
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »



روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنانة
تماضر محمد تركى

أمسيات قرب قرية ديكانكا

الجزء الأول



نيقولاى جوجول



إبراهيم زكى خورشيد

دار الهلال

الجزء الأول



مقدمة

« امسيات قرب قرية ديكانكا : اليس هذا بعجيب ؟ وما عسى ان تكون هـذه الأمسيات ؟ وكيف يقحمها على العالم رجل يربى النحل ! اللهم ارحمنا ! كأنما لم ينتف من ريش الأوز ما يفى بالحاجة الى الأقلام ، ولم يصنع من الخرق مايكفى من الورق ، ولم تقنع بقع المداد بما لوثت من أصابع الناس على اختلاف طبقاتهم ! ثم تأبى النزوة بمربى نحل الا أن يحذو حذوهم ! اى ، ان ما يطبع فى أيامنا هذه لأكثر مما يسد حاجة المرء الى ورق اللف ! »

لقد دار فى خلدى منذ شهر ان الناس سوف يتناولوننى بمثل هذا الحديث ، فان قرويا على شاكلتى اذا أخرج أنفه من مكمنه ودسه فى هذا العالم الكبير كان مثله كمثلك انت سواء بسواء اذا قصدت دارا لسيد عظيم من الوجهاء ، يهرع اليك الجميع ويلتفون حولك حتى تحس بأنك كالأبله المأفون . ولو اقتصر الأمر على خدم الطبقات العليا لهان عليك الأمر كثيرا ، ولكن كل دعى حقير تعس يتسكع فى الفناء الخلفى خليق بأن يضـايقك أيضـا ، ويهب هؤلاء فيدقون الأرض بأقدامهم ويصيحون بك : « الى أين ؟ وماذا تريد ؟ أخرج أيها الفلاح » ، وانى لمستطيع أن أقول لكم .. ولـكن ما جدوى الحديث ؟ لخير لى أن أذهب مرتين فى السنة الى ميرجورود حيث لم ير وجهى مساعد قاضى الناحيـة ولا القس الموقر فى السنوات

الخمس الماضية ، من ان أختلف الى مجالس علية القوم . على انك اذا اختلفت الى مجالسهم حق عليك ان تواجه النتائج مهما يكن من أمرها .

ونحن فى ديارنا أيها القراء الأعزاء ـ وانا لا اقصد الاساءة «فلا يضيرنكم ان يوجه مربى نحل مثلى الخطاب اليكم كما لو كنتم بعض اصدقائه أو خلانه القدماء » اجل ، لقد جرت العادة فى ديارنا ان الفلاحين فى الدساكر يدأبون دائما على التسلق الى مصاطب المواقد يهجعون اليها طول الشتاء متى فرغوا من عملهم فى الحقول ، ونضع نحن مربى النحل نحلنا فى قبو مظلم ، فاذا حل ذلك الوقت من السنة الذى تختفى فيه الكراكى من السماء وثمار الكمثرى من الشجر ، رأيت بلا ريب نورا يتلألأ فى مكان من طرف الدسكرة عندمايأتى المساء ، وسمعت على البعد ضحكا وغناء وعزفا على القيثارة الروسية « البلاليكا » ، وقد تسمعأحيانا صوت كمان ولغط وضوضاء .

تلك هى الحفلات التى نقيمها فى المساء ! وهى أشبه ما تكون بحفلة الرقص ، وان كنت لا انكر أنها لا تشبهها تماما ؛ ذلك انك لاتذهب الى حفلة راقصة الا لتقفز متبخترا هنا وهناك ، أوتتثاءب ويدك على فمك . أما حفلاتنا فان الفتيات يجتمعن فيها معا فى كوخ واحد لا ليرقصن بل ليشتغلن بمغازلهن ومنادفهن ، ويحق لك ان تقول انهن يقمن بعملهن أولا ، فالمغازل تطن والأغانى تنساب متصلة متداركة ، ولا ترفع احداهن راسها عن شغلها ، حتى اذا اقتحم الفتيان الكوخ ومعهم عازف الكمان ساد الهرج والمرج ، وبدا اللهو والمرح ، واندفع القوم الى الرقص، ولن استطيع اناحدثكم ما يأخذون به انفسهم من العاب .

ولكن امتع ما يفعلون جميعا هو أن يجتمعوا ويبدءوا فى حل الالغاز،

او يكتفوا بتبادل الحديث ، يا الهى ! اى قصص كانوا يقصون ! واى نوادر من الأيام الخالية كانوا ينبشون ! ويا للأمور المخيفة التى كانوا يصفون ! على ان ما كان يروى من القصص فى كوخ بانكو مربى النحل الأحمر الشعر لم يكن له مثيل فى أى مكان آخر. اما السبب الذى جعل القرويين يلقبوننى بذى الشعر الأحمر فانى عاجز حقا عن تبيانه . وانى لأعتقد ان شعرى قد اصبح الآن اميل الى المشيب منه الى الاحمرار، ولايخفى عليكم ان المرء فى ناحيتنا اذا لقب مرة بلقب لصق به طول عمره . ويجتمع خيار القوم ذات مساء فى كوخ مربى النحل ويجلسون الى المائدة ، وما عليك بعدئذ الا ان تنصت اليهم ! وارجو أن تعلم ان هؤلاء الضيوف ليسوا بحال من الطبقة الوضيعة ، او من الفلاحين ، بل ان زيارتهم لخليقة بان يشرف بها رجل اعلى مكانة من مربى النحل ، فهل تعرف مثلا فوما جريجوريفتش قندلفت كنيسة ديكانكا ؟ اى راس يحمله هذا الرجل بين كتفيه ! واى قصص ينطلق بها لسانه ! ولتجدن فى هذا الكتاب قصتين من قصصه . ولا يرتدى فوما أبدا سترة من غزل البيوت كتلك التى نعهدها فى غيره ممن يلون مثل منصبه فى القرى ، وحاشاه ان يفعل ذلك ! بل انه ليلقاك دائما حتى فى أيام العمل ، مرتديا عباءة فى لون عصيدة البطاطس الباردة مصنوعة من نسيج ناعم ، اشترى الياردة منه بستة روبلات من بلتاوة . اما حذاؤه الطويل الرقبة فلم يقل أحد فى الدسكرة قط ان رائحة القطران تنبعث منه ، وما من احد يجهل انه يجلوه بأحسن انواع الشحم ، وانا اعلم ان كثيرا من الفلاحين يسرهم ان يضعوا بعض هذا الشحم فى ثريدهم ، ولا يحق لانسان ان يزعم ابدا انه يمسح انفه فى طرف قميص عباءته ، كما يفعل الكثيرون

من ارباب مهنته ، حاشاه ! بل انه ليخرج من صدره منديلا أبيض نظيفا طوى فى عناية وطرزت أهدابه بالقطن الأحمر ، ثم يستعمله على خير وجه يســتعمل فيه ، ويعود فيطويه كشأنه اثنتى عشرة طية ، ثم يرده الى مكانه فى صدره .

وثمة رجل آخر : شاب مهذب ظريف حتى لتحسبه فى يسر مساعدا لقاضى او ملاحظا لأرض ، فاذا قص عليك قصة رفع اصبعه،وأخذ يمعن النظر فى أنملته ، وهو يعمد الى التلاعب بالألفاظ وتنميق الكلمات مما لا تجد له مثيلا الا فى كتاب ، وتروح تنصت اليه ثم تنصت حتى تتملكك الحيرة ويرتبك عقلك ، فلا تستطيع مهما جهدت أن تعرف لما يقول راســا من ذنب . ترى من أين التقط كل هذه الكلمات ؟ وقد سخر به فوما جريجوريفتش يوما لهذا السبب ، وقص عليه قصــة فتى كان يتلقى دروســا فى اللاتينيــة على شماس ثم عاد الى ابيــه عالما باللغة اللاتينية حتى لقــد نسى لغة بلادنا ، وأخذ يلحق بآخر كل كلمة مقطعا لاتينيا ، فالمجرفة عنده مجرفوس والسمك سمكوس . واتفق يوما أن رأى وهو فى صــحبة أبيه فى الحقول مجرفة فسأله « ماذا تسمى هذه يا ابى ؟ » ، ولم ينظــر الفتى الى موضــع قدمه فوطىء اسنان المجرفة فارتفع مقبضها قبل أن يستطع ابوه الاجابة ، واصابته فى راسه ، فصاح وهويضع يده فوق جبهته ويقفز نصف ياردة فىالهواء : « الا لعنة الله على هذه المجرفة ، وليطوح الشيطان بأبيها من فوق الجسر ! » وهكذا تذكر اسمها أخيرا .

ولم ترق هذه القصة فىعين قصاصنا المدع . فنهض من مقعده دون أن ينبس ببنت شفة ، ووقف فى وسط الغرفة وقد انفرجت ساقاه ،ومال برأسه قليلا الى الامام ،ودس يده فى الجيب الخلفى

لسترته التى يحاكى لونها لون البازلاء الخضراء ، واخرج صندوق سعوطه المستدير المطلى باللك ، ونقر على وجه القائد المنقوش على الصندوق ، ثم أصاب من السعوط المخلوط بمسحوق خشب الدردار وأوراق نبات الكاشم قدرا مليحا ، وثنى مرفقه ورفع يده الى أنفه ونشقه دفعة واحدة دون أن يستعين بابهامه ، أجل ، فعل ذلك كله دونأن ينبس ببنت شفة، ولم يتمتم بشىء الا عندما أخرج من جيب آخر منجيوب سترته منديلا ازرق من القطن منقوشا بمربعات بل انى لاظن أن هذا الشىء كان يدور حول الحكمة التى تنهى المرء عن أن يلقى بدرره أمام الخنازير ، وقلت أحدث نفسى: «ان خلافا سوف ينشب » ، فقد بدا لى من أصابع فوما جريجوريفتش انه يهم بابداء سخطه ، ومنحسن التوفيق أن زوجتى العجوز قد تخيرت تلك اللحظة بالذات لوضع الكعك الساخن والزبد على المائدة . واقبلنا جميعا نصيب منهما ما نصيب ، ومد فوما جريجوريفتش يده ليتناول كعكة ساخنة ، فصرفه ذلك عن أن يومىء بها ايماءة نابية ، وراح الجميع كشأنهم يتحدثون بمهارة زوجتى فى الطهو .

ولدينا قصاص آخر ، ويحسن بنا الا نفكر فيه ليلا ، فان فى جعبته من القصص المخيفة ما يقف له شعر راسك ، وقد اهملت قصصهعمدا ، ذلك أن خيار الناس قد يتملكهم الفزع حتى ليخافون من مربى النحل خوفهم من الشيطان نفسه ، ولو مد الله فى عمرى الى أن أدرك العام الجديد واخرج مجدا آخر ، فمن يدرى لعلى أوقع الرعب فى قلوب قرائى الكرام بشىء من قصص الأشباح والعجائب التى شاهدها الناس فى الأيام الخالية فى هذا البلد المسيحى ، ولعلكم تجدون فيها بعض قصص يرويها مربى النحل نفسه لأحفاده ، وانا زعيم بأن لدى منها ما يكفى ملء عشرة

مجلدات لو شاء الناس أن يقرءوا ويعـــوا ، ولم أصب أنا بآفة الكسل ، فتعوقني عن التفتيش عن هذه القصص في زوايا مخيلتي.

ولكن دعنا من هذا ! فقد نسيت ما هو أهم : ذلك انني ارجوكم أيها السادة أن تسلكوا الطريق العام رأسا الى ديكانكا عندما تأتون لزيارتي ، وقد وضعت الاسم على صفحة الغلاف عن قصد حتى يكون وصولـكم الى دسكرتنا أسهل وأيسر ، ولا شك عندي في انكم سمعتم الكثير عن ديكانكا ، وليس منزل مربي النحل فيها سبة في جبين منازلها . أما الحديقة فأنا زعيم بأنكم لا تجدون مثلها في مدينتكم سانت بطرسبرغ ، وما عليـكم عنـدما تبلغون ديكانكا الا أن تسألوا أي غلام من الغلمان الصـغار الذين يرتدون قميصا قـذرا ويرعون الأوز : « أين يقيم بانكو الأحمر الشعر مربي النحل ؟ » فيجيبكم بقوله : « هناك » ، وهو يشير باصبعه ، واذا شئتم قادكم الى الدسكرة ، ويجدر بي ان أسألـكم شيئا واحدا هو الا تسيروا مختالين واضعين أيديكم خلف ظهوركم ، فان طرق قريتنا ليست في نعومة طرق المركبات المؤدية الى قصـــوركم ، فقد كان فوما جريجوريفتش يسوق عربته قادما من ديكانكا في العام الأسبق فسقط في حفرة هو وفخه الجديد وفرســه الأشقر وكل ما كان في العربة ، بالرغم من انه كان يسوق بنفسه ويلبس نظارة أيضا .

على اننا سنقدم اليكم حين تصلون اطيب ماذقتم في حيـاتكم من البطيخ ؛ وصدقوني انكم لن تجدوا فيأية دسكرة اخرىشهدا اشهى من شهدنا ؛ فاذا جئتم بقرص من اقراصه انتشر في الغرفة عبير لا يخطر ببال ، وبدا لكم صافيا صفاء الدمعة أو البلورة الثمينة التي ترونها في لاقراط . وما بالـكم بالفطائر التي ستتحكفم بهـــا

زوجتى العجوز ! يا لها من فطائر كالسكر أو هى السكر بعينه ! فما أن تمس شفاهكم حتى يذوب الزبد فيها أو يكاد . تالله ان هؤلاء النسوة لقادرات على ان يأتين بكل شيء ! وقد ذقتم فى حياتكم خمر الكمثرى المطيبة بالخوخ البرى او احتسيتم فودكا الزبيب الممزوجة بالبرقوق ، أو البليلة باللبن ؟ يا الهى ! ما اكثر ما عندنا من لذائذ واطايب ! وما أن تشرعون فى أكلها حتى تعلموا أنها من خصائص المآدب ولا شك ، ولقد حدث فى العام الماضى .. ولكن ما بالى انساق فى الحديث هذا الانسياق ؟ حسبكم ان تأتوا لزيارتنا بأسرع ما يمكنكم ، فنقدم لكم من الطيبات ما يجعل السنتكم تتحدث بها مع كل من تلقون من الناس .

بانكو الاحمر الشعر

مربى النحل

سوق سورتشنستى



سوق سوروتشنستى

— ١ —

لقد سئمت الكوخ
فآه لو اخـذتمونى من هنـا
الى حيث الضـجيج والعجيج
والفتيـات يرقصن فرحات
والفتيـان يمرحون ويلهون !

(من قصة شعرية قديمة)

لشد ما يبهج القلب ويروع النفس ان تشـهد يوما من أيام الصيف فى أوكرانيا ! وما أمتع الدفء تحس به عندما يتألق ضـوء الظهيرة فى غمرة السكون والحرارة القائظة ، ويبدو أديم السماء فى زرقته وامتداده الفسيح وقد استدار كالقبة البديعة الحسن وسنان غارقا فى نعيم الـكسل والاسترخاء ، يعانق الأرض الجميلة ، ويضمها الى صدره الأثيرى ضما قويا ، لا تغشاه سحابة ، ولا تسمع من تحته نامة ولا صوت ، ويشمل السكون كل شىء ويـكاد يسلبه الحياة الا من قنبرة تغرد فى طبقات الجو العليا ، فتنساب أنغامهـا الفضية على الأرض المفتونة الوالهة ، وينبعث فى السهب من حين الى حين صياح طائر النمرس أو صفير السمان ،وتقف أشجار البلوط الشامخة مسترخية خلية البال ، كأنها نفر من الضاربين فى الأرض يهيمون بلا غاية ولا قصد ، وتلوح من أشعة الشمس بوارق تخطف البصر فتضىء حشدا بهيجا من أوراق الشجر ، وتلقى على غيره من الأوراق ظلا أسود كالليل يخـالطه اذا هبت الريح وشى من ذهب ، وتحوم هوام الجـو كومضات الزمرد والياقوت أصفره وأحمره حول حدائق المطابخ البهيجة التى يتسنمها عبـاد الشمس المهيب الجليل ،

وتصطف اكداس الدريس الشهب وحزم القمح الذهبية كالخيام فى السهل منتشرة فى ارجائه الفسيحة ، وتنوء الأوراق العريضة لشجر الكرز والبرقوق والتفاح والكمثرى بما تحمل من فاكهة ، وتنبسط السماء كالمرآة الصافية ويرفل النهر فى بساط سندسى مزهوا فخورا !

الا ما أمتع الصيف فى اوكرانيا وافتنه وأبعثه على الراحة والاسترخاء !

وقد تمثل هذا النعيم والبهاء كله فى يوم حار من أيام شهر اغسطس عام ألف وثمانمائة .. ألف وثمانمائة .. اجل ، كان ذلك من نحو ثلاثين عاما حين كان الطريق فيما وراء قرية سوروتشنستى بعشرة فيرستات يعج بالناس يهرولون الى السوق من المزارع ، قاصيها ودانيها ، وقد سارت العربات الممتلئة بالسمك والملح منذ الصباح الباكر فى رتل لا ينتهى على طول الطريق ، وكانت جبال من القدور المحزومة بالقش تسير فى بطء وكلال كأنما ادركتها الملالة والسأم من حبسها فى الظلام ، وانما يلوح من بينها هنا وهناك « سلطانية » أو جرة باهرة الطلاء تطل مزهوة من خلف الحاجز الممسك بذلك الكوم العالى المكدس فوق العربة ، مجتذبة انظار أولئك الذين تستهويهم هذه الكماليات . وراح كثير من المارة ينظرون بعين الحسد الى الفخرانى الطويل القامة صاحب هذه الكنوز ، وهو يسير فى بطء وتمهل خلف بضاعته ، يرد بين الفينة والفينة طرائفه من الفخار بعناية الى مواضعها من القش الذى سئمته . وكان زوج من الثيران الكليلة يجر على جانب من الطريق بمعزل عن رتل العربات ، عربة تكدست فوقها أكوام عالية من الأكياس والقنب والكتان والأدوات المنزلية على اختلافها يتبعها صاحبها وقد تسربل بقميص نظيف من الكتان وسروال قذر من الكتان أيضا ، وراح يمسح بيده فى تكاسل وبلادة وجهه الأسمر من اثر العرق الذى يتقاطر من شاربه الطويل الذى ذر عليه الذرور ذلك الحلاق العاتى الذى يحل بالمليح والقبيح على السواء من غير دعوة ، أجل ذلك الحلاق الذى ظل آلاف السنين يذر الذرور قهرا على الناس ولم ينج منه أحد من بنى الانسان. وسارت الى جانب الرجل فرس شدت الى العربة ، وقد نم انكسارها ووداعتها عما بلغته من سن عالية .

وكان كثير من المارة ، وبخاصة الفتيان ، يخلعون قبعاتهم وهم يمرون بفلاحنا ، ولم يحملهم على ذلك شاربه الأشيب أو خطوته الوقور ، بل شيء آخر كان لا يقتضي من المرء الا أن يرفع عينيه قليلا ليكشف عن سر هذا الاحترام ، ذلك ان ابنته الجميلة كانت تجلس فوق العربة ، فتاة ذات وجه مستدير ، وحاجبين اسودين تقوسا فى استواء فوق عينين صافيتين عسليتين ، وشفتينورديتين ضاحكتين ، وقد التفت الشرائط الحمر والزرق فى ثنايا ضفائرها الطويلة فتوجت هى وباقة من الأزهار البرية رأسها الفاتن ، وبدا للأنظار أن كل شىء يثير اهتمام الفتاة ، فقد كان كل شىء جديدا يثير العجب ، وكانت عيناها الجميلتان تتوثبان طوال الوقت متنقلتين من شىء الى شىء ، وأى عجب فى ان يثور اهتمامها ، وقد كانت هذه أول مرة تزور فيها سوقا من الأسواق ؟ وما بالك بفتاة فى الثامنة عشرة من عمرها تجد نفسها فى سوق لأول مرة ؟ ولم يك أحد من المارة يدرى مقدار ما بذلته من جهد لاقناع أبيها باصطحابها معه ، وقد كان الرجل مستعدا للاستجابة الى طلبها قبل ذلك لولا زوجة ابيها الحقود التى تعلمت ان تسوس قيادة بالمهارة التى يقود هو بها فرسه العجوز الآن الى السوق لبيعها جزاء لها على ما قضت فى خدمته من سنين طويلة . الا تبا لتلك المراة المزعجة ! ولكننا نسى انها كانت هى أيضا تجلس على قمة الحمل وقد ارتدت سترة خضراء أنيقة من الصوف زينتها بذيول صغيرة تقلد بها فراء القاقم الثمين على الرغم من أن هذه الذيول كانت حمر اللون ، كما ارتدت نقبة رائعة ذات مربعات كأنها لوحة الشطرنج ، وقبعة ملونة مزينة بالأزهار اضفت سمة بارزة من سمات الجلال على وجهها المستدير الأحمر الذى كان ينم عن طبيعة نكدة شرسة ترد كل متطلع الى الانصراف عنه سريعا الى وجه الفتاة الصبوح المشرق .

وتراءى نهر بسيول لأعين مسافرينا ، بل هم قد أحسوا على البعد منه بجوه الرطيب المنعش ، فهشت له نفوسهم بعد أن نالت منها الحرارة اللافحة كل منال ، وبدت لمحات من الماء البارد تتألق من ثنايا الأوراق الداكنة والأوراق الخضر الزاهية لأشجار التامول والحور التى انتشرت فى أرجاء السهل بلا نظام ولا عناية ، وفتح النهار البديع

صدره الفضى المشرق وقد حنت عليه هدائل الأشجار الخضر وافرة غزيرة ، وكان يغير مجراه كل عام تقريبا ويتخير مجرى جديدا ، ويحوط نفسه بمناظر جديدة مختلفة الألوان والأشكال ، أجل كان يفعل ذلك عن وعى وادراك كأنه غادة فاتنة تبرز مرآتها الأمينة فى هذه الساعات الساحرة قوامها البديع وجبينها الوضاء الشامخ وكتفيها اللتين اكتستا بلون الزنبق وعنقها المرمرى تغشاه أمواج من شعرها الأسود ، ثم تطرح فى ترفع وانفه حلية من الحلى لتستبدل بها اخرى وقد استرسلت فى نزواتها استرسالا لا يعرف له آخر . وكانت صفوف من طواحين الماء ترفعه فى أمواج كبيرة بعجلاتها الثقيلة ، ثم تعود فتقذف به الأرض فى عنف وقوة ، وتمخضه مخضا يستحيل معه الى زبد ينتشر محدثا هديرا عظيما .

وفى تلك اللحظة بلغت العربة الجسر هى والأشخاص الذين وصفناهم ، وانبسط النهر امامهم بكل ما حباه الله من جمال وجلال كأنه صفحة من زجاج ، وانعكست على اديمه السماء والغابة الخضراء والزرقاء الداكنة والرجال وعربات القدور وطواحين الماء ، فبدت جميعا منقلبة رأسا على عقب ، ولكنها لسبب من الأسباب لم تغص فى أعماق النهر الزرق الجميلة .

واستغرقت غادتنا الفاتنة فى التأمل سارحة ببصرها فى هذا المنظر البديع ، وبلغ من استغراقها انها نسيت أن تقضقض بزور عباد الشمس التى كانت مشغولة بأكلها طول الطريق ، وطرق أذنها فجأة صوت يقول : « يا لها من فتاة ! » ، فتلفتت فرأت جماعة من الشبان يقفون على الجسر ، وقد تأنق واحد منهم فى ملابسه أكثر من أصحابه ، وارتدى سترة بيضاء وقبعة رمادية من فراء استراخان ، وراح ينظر فى مرح الى المارة واضعا يديه فى خاصرتيه ، ولم يسع الفتاة الا ان تلاحظ وجهه الطلق الذى لفحته الشمس ، وعينيه المتألقتين اللتين كانتا فيما يلوح تحاولان جاهدتين أن تنفذا الى اعماقها ، وأرخت الفتاة بصرها اذ طاف بذهنها أن هذا الشاب قد يكون هو الذى نطق بهذه الكلمات .

ومضى الشاب ذو السترة البيضاء يقول وعيناه لا تتحولان عنها : « يا لها من فتاة رائعـــة ! ، وانى لأبذل كل ما أملك فى سبيل قبلة منها ! ولكن أنظروا الى تلك الحيزبون التى تجلس فى مقدمة العربة »!

وانفجر الشبان ضاحكين جميعا ، ولـــكن زوجة الفلاح البطىء الحركة التى كانت قد ارتدت من الملابس اكثر مما ينبغى ، لم تسرها هذه التحية ، فاضطرم خداها الوردبان بنار الغضب ، وانهالت على رأس الشاب بسيل من الشتائم المنتقاة .

« الا فليزهق الطاعون روحك ايها المراكبى الخبيث ! ولتنزلن برأس ابيك قدر فتحطمه ! ولتتعثر قدمه على الجليد ، هذا الكافر الملعون ! وليحرق الشيطان لحيته فى جهنم ! » .

وقال الشاب وهو يحدق فيها النظر ، كانما اذهلته هذه السهام الحادة من التحيات المفاجئة : « بالله انصتوا اليها ! وانظروا كيف تطلق هذه الحيزبون لسانها بمثل هذه الكلمات ! انها لتبلغ من العمر المائة ولا تنقص يوما ! » .

وردت العجوز الشمطاء عليه قائلة : « مائة ؟ أيها الوثنى ، اذهب واغسل وجهك ايها الوغد الحقير ! اننى لم ار امك قط ، ولكننى أعلم انها قذرة وان اباك قذر ، وعمتك قــذرة ! مائة حقا ! ايهـــا الخنزير الأمخط ! .

وكانت العربة تبتعد عن الجسر ، فغابت الكلمات الأخيرة عن الأسماع، الا أن الشاب لم يكن يريد فيما يظهر أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، فبادر من غير ترو الى التقاط حفنة من الطين ورماها بها ، وأصابت الرمية اكثر مما كان يرجى لها ، وتناثر الطين فلطخ القبعة الملونة كلها ،

وازدادت قهقهة الأوغاد المعربدين علوا وصخبا ، وغلى مرجل الغيظ فى صدر الحيزبون البدينة ، بيد أن العــربة كانت قد ابتعــدت كثيرا فصبت جام غضبها ونقمتها على رأس كنتها البريئة وزوجها البطىء الحركة . وكان الرجل قد ألف هذه الاعتداءات منذ وقت طويل ، فلزم الصمت فى اصرار وعناد ، واخــذ ينصت ساكن الجأش الى شقشقة لسان زوجته ، ولم ترعو المرأة بل مضى لسانها الذى لا يدركه التعب

فى الشقشقة حتى بلغت العربة بيت صـــديقهم وخلهم القديم ، وهو قوزاقى يسمى تسيبوليا يقيم فى ضواحى القرية . وتلاقى الأصدقاء القدماء بعد فراق طويل ، ونسي مسافرونا هذا الحادث المؤسف الى حين فى غمرة حديثهم عن السوق ، وأخلدوا الى الراحة بعد رحلتهم البعيدة .

— أ —

رباه ! اى شيء لا تجده فى
تلك السوق ، ان فيها عجلات
وزجاجا للنوافذ ،وقطراناوتبغا
واحزمة وبصــــلا ، وحوانيت
لبيع السلع الصـــــغيرة على
اختلاف أنواعها ..وهيهات أن
تشترى ما فى الســوق جميعا
وان امتلأ جيبك بثلاثين روبلا
نقدا وعدا !

(من ملهاة أوكرانية)

أو قد سمعت شلالا يتدفق ماؤه فيصطخب الجو من حولك ويختلط فيه الهدير وأصوات مضطربة غريبة مبهمة ؟ ألا يتملكك فورا هــذا الشعور نفسه وأنت تضرب فى لجة سوق من الأسواق التى تقوم فى القرى حين يمتزج الناس جميعا فى كتلة واحدة أشبه بالوحش المخيف الهائل يتحرك جسمه كله فى ساحة الشوق وفى الطريق الضيق ، يصيح ويضحك ويضوضى ؟ ويختلط الصخب والسباب والخــوار والثغاء والضجيج والعجيج فى هدير واحد مهوش مضطرب ، فترى الثيران والأكياس والدريس والنور والقدور والفلاحات والكعك والقبعات ، أجل ترى كل شيء وقد بدا فى ألوان زاهية براقة متنافرة يندفع فى هرج ومرج أمام ناظريك ، وتطغى بعض الأصوات المختلفة على بعض ،

فلا تستطيع أن تلتقط كلمة واحدة او تظفر بها فى خضم هذا الطوفان ، بل لا تستطيع أن تميز صيحة واحدة ، وتسمع الأيدى تتقارع فى كل مكان متصافحة دليلا على ابرام صفقة من الصفقات ، وترزح عربة بما تنوء من حمل وتتحطم ، وتطـــرق اذنيك أصوات قعقعة الحديد وارتطام الألواح الخشبية تهوى الى الأرض ، فيتصدع راسك من الدوار ، ولا تعرف أى طريق تسلك ! .

وكان صاحبنا الفلاح الذى عرفناه وشيكا قد أخذ منذ حين يشق طريقه وسط الزحام ومعه ابنته الكحيلة العين ، ومضى الرجل الى حمل عربة من العربات وتحسس بيده حملا آخر وسأل عن الأثمان ، وظلت افكاره تحوم حول عشرة الأكياس من القمح والفرس العجوز التى جاء بها الى السوق ليبيعها ، وتجلى على وجه ابنته شيء من الضيق لاحتكاكها بعربات الدقيق والقمح . لقد كانت نفسها تتوق الى غشيان المكان الذى تعرض فيه الأشرطة الحمر وأقراط الصفيح والصلبان المصنوعة من النحاس والدنانير الذهبية عرضا جذابا تحت مظلات من الكتان ، على أنها كانت تجد فى المكان الذى كانت تلم به اشياء كثيرة جديرة بالانتباه ، فقد سرها غاية السرور منظر نورية وفلاح قرع كل منهما يد صاحبه قرعا عنيفا بعد أن عقدا صفقة حتى صرخا من الألم ، ومنظر يهودى ثمل يلكز امراة فى ردفها ، ومنظر بائعتى سمك تتبادلان السباب وتتضاربان بسرطان الماء العذب ، ومنظر روسى يربت لحية تيسه باحدى يديه ، أما اليد الأخرى... ولكنها شعرت فى تلك اللحظة بشخص يجذبها من كم صدارتها المطرزة،فالتفتت فرأت الشاب المشرق العينين ذا السترة البيضاء يقف أمامها ، ففزعت وخفق قلبها كما لم يخفق من قبل قط لفرح استخفه أو حزن الم به ، فقد احست بشعور غريب لذيذ ، لم تستطع أن تدرك كنهه .

وقال لها الشاب فى صوت خفيض وهو يأخذ بيدها : « لا تراعى يافاتنتى ! لا تراعى ! فلن اقول شيئا يصيبك منه ضرر ! » .

وحدثت الفتاة نفسها قـائلة : « لعلك لا تفعل ، ولـكن ثمة شيئا غريبا ، وقد يكون هذا الشيء هو ابليس اللعين ! وانى لأعلم أن هذا

الذى يلم بى بعيد عن الصواب ، ولكنى لا اجد فى نفسى القوة على سحب يدى » .

وتلفت الفلاح وهم بأن يقول شيئا لابنته ، واذا به يسمع كلمة « القمح » تتردد ، فحملته هذه الكلمة ذات السحر على أن يلحق من فوره بتاجرى قمح كانا يتحدثان بصوت مرتفع ، واصم اذنه عن سماع اى شىء آخر .

- ٢ -

الا ترى اى فتى هو ؟
انه لفتى قل ان تجد له ضريبا
فى هذا العـــــالم ، فهو يحب
الفودكا كأنها الجعة !
« الانياذة لكوتلياريفسكى » (١) »

وسأل أحد التاجرين ، وكان يبدو عليه أنه من أهل الحضر ، يرتدى سروالا مصنوعا من قماش خشن من غزل البيوت وقد لطخه القطران : « اذن فأنت تظن أيها الجار اننا لن نبيع قمحنا بثمن مناسب » .

فقال صاحبه ، وكان رجلا علا جبهته ورم كبير ، يرتدى سترة زرقاء تناثرت الرقع فيها : « انى لا أظن ، بل أقول قول الواثق ، واننى لعلى استعداد أن أضع حبل المشنقة حول رقبتى ، وأتدلى من تلك الشجرة كما تتدلى المقانق (السجق) فى الكوخ قبل عيد الميلاد اذا بعنا بوشلا واحداً » .

ورد الرجل الذى يرتدى ذلك السروال من غزل البيوت : « على رسلك أيها الجار ، فما جاء أحد بقمح سوانا » .

وقال والد غادتنا الحسناء بينه وبين نفسه ، ولم تك قد فاتته كلمة واحدة من حديث التاجرين : « فلتقل ما شئت ، فانى أدخر عشرة أكياس » .

(١) كوتلياريفسكى : شاعر أوكرانى معاصر لجوجول ، و « الانياذة » صورة هزلية لملحمة فرجيل .

وقال الرجل الذى يعلو جبينه ورم متطيرا : « ايه ، وانك لترى ان الأمر لا يعدو ما أقول ، وهو أن الشيطنة اذا دخلت فى شىء فلن تصيب منه اكثر مما تصيب من مسكوفى جائع » .

وقال الرجل الذى يرتدى السروال من غزل البيوت : « وماذا تعنى بالشيطنة ؟ » .

وقال صاحب الجبين الوارم وهو ينظر اليه شزرا من طرف عينيه الحزينتين : « الم تسمع ما يقوله الناس ؟ » .

« وما بالهم ؟ ».

« جميل منك أن تقول ما بالهم ! ولكن مساعد القاضى — لا قدر له أن يمسح شفتيه مرة أخرى ابدا بعد أن يصيب من خمر النبلاء المصنوعة من البرقوق ما يصيب — قد خصص للسوق بقعة مشئومة ينشق جنباك قبل أن تتصرف فى حبة واحدة من القمح . او ترى تلك الصومعة القديمة المتهدمة التى تقوم هنالك فى سفح التل ؟ » (وما أن بلغا فى الحديث هذا الحد حتى اقترب منهما الفلاح الفضولى واصبح كله آذانا مصغية) ، « أن جميع الألاعيب الشيطانية تجرى فى هذه الصومعة ، وما من سوق قامت فى هذه البقعة الا حفت بها المتاعب . وقد مر بها كاتب النـــاحية فى ساعة متأخرة من الليلة الماضية ، فأطل عليه فجأة من غرفة الدار العليا خطم خنزير ، وقبع الخنزير بصوت عال جهير ارتعدت له فرائصه ، واغلب الظن اننا سنعود لمشاهدة السترة الحمراء مرة اخرى » .

« اى سترة حمراء ؟ » .

ووقف شعر صاحبنا الفلاح الذى كان ينصت باهتمام الى حديث الرجلين عندما سمع هذه الكلمات ، وتلفت فزعا ، فرأى ابنته هى والشاب واقفين وقد طوق كل منهما خصر صاحبه بذراعه ، ووراحا

يتهامسان متعابثين بكلمات رقيقة عذبة غير عابئين بكل ما فى العالم من سترات ، وبدد هذا المنظر ما تملك الفلاح من رعب وأعاد الى نفسه الطمأنينة والهدوء .

« ايه أيها الجار ! يبدو لى انك تعرف كيف تضم فتاة الى صدرك ! لقد قضيت ثلاثة ايام بعد زواجى من خفسكا المسكينة ، رحمة الله عليها ، قبل ان أتعلم كيف اضمها الى صدرى ، وكان الفضل فى ذلك لصديق كان شاهد عرسى ، وهو الذى لمح بذلك من طرف خفى » .

وادرك الشاب أن أبا فاتنته لم يكن من أرباب البديهة الحاضرة ، فأخذ يدبر الأمر لنيل الحظوة عنده .

« يلوح لى أيها الصديق العزيز انك لاتعرفنى ، أما أنا فقد عرفتك فى الحال » .

« أحقا ما تقول ؟ »

« أجل ، وان شئت ذكرت لك اسمك ولقبك وكل شيء يتصل بك ، وان اسمك هو سولوبى شيريفيك »

« اصبت : ــ سولوبى شيريفيك »

« انظر الى جيدا ــ ألا تذكرنى ؟ »

« كلا ، لا اذكرك ، ولست أقصد بذلك ان أسيء اليك ، فقد رايت فى حياتى وجوها كثيرة جدا على جميع الأنواع والأشكال ، فكيف تريد منى ان اذكرها جميعا »

« يحز فى نفسى كثيرا انك لا تذكر ابن جولوبوبنكو »

« وى ! هل أبوك هو أوخريم ؟ »

« ومن يكون سواه ؟ وان لم يكن هو فلعله يكون جدى العجوز الأصلع نفسه »

وعندئذ خلع الصديقان قبعتيهما ، وراح كل منهما يقبل الآخر ، وصح عزم ابن جولوبوبنكو على أن ينفذ الى قلب صديقه الجديد دون ان يضيع فى ذلك وقتا .

« ان حقيقة الأمر ياسولوبى هى اننى تعلقت بابنتك كما تعلقت هى بى حتى صح منا العزم على ان نقضى بقية أيامنا معا » .

وقال شيريفيك وهو يضحك ويلتفت الى ابنته : « مرحى يا باراسكا ، ولعل الله قد وفقكما حقا ، انت وهو ، الى أن ترعيا مرعى واحدا كما يقولون ! هلم هلم ، هل اتفقتما ؟ هات يا زوج ابنتى الجديد ، وقدم لى كأسا نعقد بها الصفقة ! »

والفى الثلاثة انفسهم فى حانة السوق المشهورة ، وهى خباء ليهودية زينته بحشد من الأوانى والزجاجات والقنانى من كل صنف ونوع .

وقال شيريفيك وقد لعبت الخمر برأسه قليلا ، اذ راى زوج ابنته المرتقب يملأ ابريقا سعته ١٢٥ درهما ويجرعه دفعة واحدة دون ان يطرف له جفن ، ثم يقذف به الى الأرض فيهشمه تهشيما : « يالك من شاب حاذق فطن ! وأنا احب فيك هذا ! ما قولك يا باراسكا ؟ الم اجد لك زوجا مليحا ؟ انظرى كيف يعب الشراب عبا ! »

ومضى الرجل بصحبة الفتاة الى عربته وهو يضحك ويترنح ، اما الشاب فقد شق طريقه الى المظلات التى عرضت فيها ادوات الزينة ، وكان فيها تجار من جادياخ نفسها بل من ميرجورود .

وهما مدينتان مشهورتان من اعمال بلتاوة ، واختار أحسن غليون من الخشب المحلى برباط انيق من النحاس ، ومنديلا احمر منقوشا بالزهر ، وقبعة ، ليقدمها فى الزفاف هدايا الى حميه والى من هم جديرون بهذه الهدايا .

- ٤ -

اذا اراد الرجـــل شيئا
وارادت زوجته شيئا آخر
فانت تعلم لمن تكون الغلبة!

« كوتليارفسكى »

« مرحى يا امرأتى ، لقد وجدت زوجا لابنتى »

« عجبا لك ! هل هذا هو الوقت المناسب للبحث عن الازواج؟ يا لك من أبله مأفون ! ولاشك انه قد كتب عليك يوم ولادتك أن تلازمك هذه الصفة ! والا فخبرنى هل فى الخلق من أحد رأى أو سمع برجل وقور يتصيد الأزواج فى وقت كهذا ؟ لخير لك ان تفكر فى وسيلة تتخلص بها من القمح الذى بين يديك ، ولاشك عنــدى أيضا فى انك قد عثرت على شاب مليح فصيح ! انى لأتوقع أن يكون هذا الشاب هو أحقر سائل فى هذه الناحية كلها ! »

« ايه ، ليس فيما تقولين ظل من الحقيقــة ! ولشــد ما أتمنى ان ترى أى فتى هو ! ان سترته البيضـــاء وحدها لأغلى من صدارتك الخضراء وحذائك الأحمر ، فـكيف بك اذا رأيتـــه يعب الفودكا عبا ؟ ألا فليذهب بى الشيطان وليذهب بك انت أيضا ، ان كنت قد رايت من قبل شابا مثله يجرع نصف لتر من الفودكا دون أن تطرف له عين ! » .

« صدقت ، فانه ان كان سكيرا أفاقا كان على مشربك وهواك. ولا ضير من أن أراهن بأنه هو ذلك الوغد الذى أقلق منا الخواطر على الجسر ، ولشد ما يحز فى نفسى اننى لم ألقه بعد حتى أرده الى جادة العقل والصواب » .

« وماذا لو كان هو الشاب نفســه ياخيفريا ؟ وما بالك تقولين انه وغد ؟ »

« اتسألني لماذا اقول انه وغد ؟ هلا تستمعون الى هـذا الراس العجوز الفاسد ! اين كانت عيناك الخاملتان عندما كنا نسوق العربة مارين بالطواحين ؟ رجل تهان زوجته تحت انفه الكريه ولا يحرك ساكنا ! »

« لست ارى فيه عيبا على كل حال ، فهو فتى ولا كل الفتيان! وكل ما فعله انه لطخ وجهك القبيح بالروث فحسب »

« واها لك ! فاني أرى انك لا تتركنى أقول كلمة واحـدة ! ماذا دهاك ؟ لاشك انك قد اصبت كاسا قبل أن تبيع شيئا ! »

وعندئذ ادرك شيريفيك انه قد انساق فى القول اكثر مما يجب، فاسرع وغطى راسه بيديه ، ولاشك انه توقع ان زوجته الغاضبة ستمسك شعره ببراثنها الزوجية !

وقال يحدث نفسه وهو يتراجع مشفقا من ثورة زوجته الحانقة : « يا للعنة ، ولبئس المصير الذى ينتهى اليه زواجنا ! او حق على ان ارفض فتى مليحا لغير ما عذر او سبب ؟ رحماك يا الله ! لم رميتنا بهذا البلاء نحن المساكين الخاطئين ؟ وكيف اقتضت ارادتك ان تخلق لنا النساء على ما فى هذا العالم من شرور كثيرة جمة؟»

— ٥ —

لا تلوى يا شجرة الدلب،
فما زلت خضراء يانعة ،
ولاتقلق ايها القوزاقى اليافع ،
فما زلت شابا غض الأهاب.

« من أغنية اوكرانية »

جلس الشاب صاحب السترة البيضاء بجوار عربته يحملق شارد الفكر فى زحمة الناس الذين كانوا يضوضون من حوله ، واخذت الشمس الواهنة تنحسر عن الأرض بعد ان ظلت تسطع هادئة مطمئنة البال طيلة ساعات الظهيرة ، وراح ضوء النهار يخبو فى وهج سنى فتان ، وتلألأت قمم المظلات والخيم البيض ببريق يخطف الأبصار يغشاه وشى وردى باهت ، وتألقت الواح الزجاج فى اطارات النوافذ التى كدست للبيع ، وكانت الأقداح الخضر والقنانى التى على موائد مظلات الشراب تومض وميض النار ، وبدت تلال البطيخ واليقطين كأنها صبت من الذهب والنحاس الداكن ، وقل الكلام ، وثقلت السنة الباعة المتجولين والفلاحين والنور من التعب والكلال ، وازدادت حركتها كسلا وتراخيا ، وبدأت الأنوار تشعشع هنا وهناك ، وانطلق البخار الطيب النكهة من لقيمات القاضى التى كانت تغلى ، وانساب فوق الطرقات التى خيم عليها السكون .

وصاح رجل من النور طويل القامة لفحت الشمس وجهه وهو يضرب صديقنا الشاب على كتفه : « ما الذى يحزنك ياجريتسكو؟ هلم ، وبع لى ثيرانك بعشرين روبلا ! »

« ان حياتك كلها ثيران فى ثيران ، وانتم معشر النور لا تفكرون الا فى الكسب ، تغشون الشرفاء وتخدعونهم ! »

« آه ، أرى ان مرارتك قد انشقت من الغضب ! ترى اضاق صدرك لأنك ربطت نفسك بفتاة ؟ »

« كلا ، ليس هذا من خلقي ، فاني أحفظ عهدى ، وما أفعله التزمه دائما ، على ان ذلك الشيخ العجوز شيريفيك لا تنطوى جوانحه فيما يبدو لى على ما يساوى نصف كوبيك من الضمير ، فقد وعد ولكنه نكث الوعد ، ولا ضير فى لومه فهو غبى أحمق وحسب ، وكل هذا من صنع تلك العجوز الشمطاء التى سخرت بها جماعتنا من الفتيان على الجسر اليوم ! ولو اننى كنت القيصر أو أى وجيه من أشراف القوم لشنقت جميع أولئك الحمقى الذين يسلمون قيادهم للنساء » .

« هل تبيعنا الثيران بعشرين روبلا اذا نحن حملنا شيريفيك على ان يزوجك باراسكا ؟ »

وحملق جريتسكو فيه متعجبا ، فقد كان يشوب وجه ذلك النورى الأسمر شيء ينم عن الحقد والخبث واللؤم ، وان كان فى الوقت نفسه ينطوى على الغطرسة والكبر ، وكان كل من ينظر اليه خليقا بأن يجد فى تلك النفس الغريبة خصالا وصفات عظيمة ، وان كان لايستحق عليها من جزاء فى عرف الناس على ظهر هذه الأرض الا المشنقة ! وكان فم الرجل غارقا تماما بين أنفه وذقنه الحاد الطرف تعلوه دائما ابتسامة ساخرة، وعينان صغيرتان تضطرمان كالنار ، ويبرق محياه بومضات فى كل آن من الدس والوقيعة والاقدام ، وقد بدا ذلك كله متمشيا مع الزى الغريب الذى كان يرتديه ، فقد كانت سترته السمراء الداكنة التى يتراءى للناظرين أنها خليقة بأن تستحيل ترابا اذا لمسها لامس ، وشعره الأسود الطويل يسترسل على كتفيه فى جدائل معقدة ، وحذاؤه الذى ينتعله فى قدميه العاريتين اللتين لفحتهما الشمس ، أجل كان ذلك كله فيما يلوح جزءا لا يتجزأ منه .

وأجاب الشاب وهو لايزال يحدق النظر فى النورى بنظرات مستشفة : « سأبيعها لك بخمسة عشر روبلا لا عشرين ، ولكن لا تخدعنى » .

« خمسة عشر ؟ اتفقنا ! واياك ان تنسى ، خمسة عشر ! هاك خمسة روبلات على الذمة ! »

« واذا خدعتنى ؟ »

« كان ما فى ذمتك لك »

« حسن ! هات يدك ابراما لهذه الصفقة ! »

« اتفقنا »

- ٦ -

كان الله فى عوننا ! فان زوجي
مقبل وليكونن هنا بعد لحظة
وليضربننى ، أما أنت يا بان
خوما فلن تفلت بجلدك منه ايضاً !

« من ملهاة أوكرانية »

« من هنا يا افناسى ايفانوفيتش ! فان السياج أكثر انخفاضا فى هذا الموضع . ارفع قدمك ولا تخف ، فقد مضى العجوزالأحمق صحبة خله يقضى ليلته نائما تحت العـــربة حتى يطمئنا الى أن المسكوفيين لن يسرقوا شيئا »

وهكذا شـــجعت زوجة شـــيريفيك العاتية ابن القس الذى كان يتعلق بالسياج فى ضعف وخور ، فتسلق الى قمة السياج ، وبقى فى موضعه مترددا لحظة كأنه شبح نحيل مخيف يبحث عن خير مكان يستطيع ان يقفز منه اليها . وهبط الفتى آخر الأمر مرتطما بالأرض بين العشب الغزير ، فغمغمت خيفريا فى قلق واضطراب قائلة : « يا الهى ! ارجو الا تكون قد اصبت نفسك بضر ! حمــدا لله على انك لم تدق عنقك ! »

وهمس ابن القس فى صـــوت ينم عن الألم وهو ينتصب على قدميه: «صه» انى بخير ، انى بخير ياعزيزتى خافرونيانيكيفوروفنا، اللهم الا ما أصابنى من القريض ، ذلك العشب الذى يشبه الأفعى، على ما وصفه به قمصنا الراحل »

« هيا بنا ندخل الى المنزل فليس فيه من احـــد ، وكنت قد بدأت أظن انك أصبت بألم فى معـــدتك ، فقـــد غبت عنى طويلا يا افناسى ايفانوفتش ، كيف حالك ؟ لقد سمعت ان أباك المبجل قد وفق فى اعماله توفيقا طيبا ! »

« لم يوفق توفيقا يستحق الذكر ياخافرونيانيكيفوروفنا ، فان ابى لم يتلق طوال أيام الصيام الا خمسة عشر كيسا أو نحوها من دقيق الربيع ، وأربعة أكيـــاس من الدخن ، ومائة رغيف ، أما الدجاج فلم يبلغ عدده الخمسين ، وكان معظم البيض فاسدا ».
ثم أردف ابن‌القس يقول وهو ينظر اليها نظرة حب وحنان ويقترب منهـا : « انما العطـايا الحلوة حقا لا تأتى الا منك ياخافرونيـا نيكيفوروفنا ! »

فقالت وهى تضـع بعض الأقـداح على المائدة ، وتثبت أزرار قميصهـا فى دلال كأنها لم تفكها عمدا : « هاك عطية يا افناسى ايفانوفتش ! فطائر باللبن المخثر ، ولقيمات قاض مصنوعة من القمح، وقطائف وكعكا ! »

وقال ابن القس وقد راح يأتى على الكعك ويسحب اليه الفطائر باليد الأخرى : « اراهن انها من صنع امهر يد خلقها الله من‌أيدى بنات حواء ، ولو ان قلبى يتوق حقا الى عطيـة منك أحـلى من القطائف ولقيمات القاضى ! »

وقالت الحسناء الربلة وهى تتظاهر بأنها لم تفهم مايرمى اليه : « لا ادرى حقا اى اطايب اخرى تريد يا افناسى ايفانوفتش ! »

وهمس ابن القس ، وهو يمسك فطيرة باحدى يديه ، ويطوق خصرها الملىء بذراعه الطليق : « حبـك طبعـا ! أى خافرونيـا نيكيفورفنا يازينة النسـاء ! »

وقالت خيفريا وهى ترخى ببصرها الى الأرض حياء وخجلا : « لا أدرى والله ماذا تعنى يا افناسى ايفانوفتش ! ولست اعجب ان حاولت بعد أن تقبلنى ! »

واسترسل الشاب يقول : « اما ذلك فلا اكتمك اننى عندما كنت فى الجامعة ، وانى لأذكر هذا الحادث كأنه وقع اليوم »

وفى تلك اللحظة طرق‌آذانهما صوت نباح وقرع على‌الباب فهرعت خيفريا الى الخارج مسرعة وعادت وقد شحب وجهها : « لقـد افتضح امرنا يا افنـاسى ايفانوفتش ، فثمة قوم كثيرون يقرعون الباب ، ويخيل الى اننى سمعت صوت تسيبوليا »

وغص حلق الشاب بالفطيرة ، وجحظت عيناه حتى أوشكتا ان

تخرجا من راسه كانما حل به وشيكا شخص جاء من العالم الآخر.

وقالت خيفريا وقد تملكها الفزع : « تسلق الى ذلك المكان ! » واشارت فى الوقت نفسه الى بعض الألواح الخشبية المثبتة فى عرض الروافد تحت السقف تماما ، وقد حملت من سقط المتاع اشكالا وألوانا .

واستثار الخطر شجاعة صاحبنا ، فارتقى الموقد ، وتسلق منه فى حذر الى الألواح الخشبية ، فى حين هرعت خيفريا مسرعة الى الباب ، وكان الطرق يشتد ويزداد الحاحا .

- ٧ -

ولـكن هنا تحدث الأعاجيب يامولاى !
« من ملهاة أوكرانية »

وكان قد وقع فى السوق حادث غريب ، اذ انتشرت فى جميع أرجائها شائعات بأن السترة الحمراء شوهدت فى مكانما بين السلع، فقد خيل الى خبازة انها شاهدت الشيطان فى صورة خنزير ينحنى على العربات كأنه يبحث عن شىء . وسرعان ما طار النبأ الى كل ركن من أركان المخيم الذى شمله السكون الآن ، وظن الجميع ان تكذيب هذا النبأ جريمة من الجرائم بالرغم من ان المراة العجوز التى كان محلها يجاور خيمة الشراب كانت تصيب من خمر جارتها ما تصيب حتى عجزت عن السـير فى خطوات مستقيمة متزنة . واضيف الى ذلك رواية أخرى عن تلك العجيبة التى شاهدها كاتب الناحية فى الصومعة المتهدمة واتصل نبؤها الى الاسماع الآن بعد أن بالغ الناس فيها مبالغة عظيمة ، وما ان بدا الليل يرخى سدوله حتى أخذ القوم يتكأكئون ، وقد فارقهم هدوء البال والطمأنينـة واستعصى عليهم جميعا ان يغمضوا عيونهم فزعا ورعبا ، أما ضعفاء القلوب منهم الذين كانوا قد التمســوا لانفسهم مضـجعا فى كوخ يأويهم سحابة الليـل فقـد خرجوا عائدين الى ديارهم ومن بينهم شيريفيك هو وابنته وصديقه تسيبوليا ، وكان هؤلاء وأصـدقاؤهم الذين تطوعوا لمرافقتهم هم الذين قرعوا الباب بتلك الشدة التى القت

الرعب فى قلب خيفريا ، وكان تسيبوليا قد نالت منه الخمر قليلا، فقد ساق عربته حول الكوخ مرتين قبل ان يتمكن من العثور عليه، وكان ضيوفه أيضا قد جنحوا الى اللهو والمرح ، فشقوا طريقهم فى غير ما كلفة الى الكوخ ، ودخلوه قبل مضيفهم ، وجلست زوجة شيريفيك على أحر من الجمر عندما بدءوا ينقبون فى كل ركن من اركان الكوخ .

وسالها تسيبوليا وهو يدخل الكوخ : « مابالك ؟ اتنتفضين من الحمى ؟ »

وأجابت خيفريا وهى تخالس النظر قلقة الى ما فوقها : «نعم، فانى مريضة »

فقال تسيبوليا : « هلمى يازوجتى ، وائتينا بالقنينة من العربة، فسنأتى عليها مع هؤلاء القوم الصالحين ، ولبئست النسوة أولئك اللائى اوقعن فى قلوبنا من الرعب ما يخجل المرء من أن يعترف به »، واسترسل فى القول وهو يكرع جرعة من ابريق الفخار : « اجل ايها الرفاق ؟ فلم يك ثمة ضرورة حقا تلجئنا الى الحضور الى هنا! وانى لأراهنكم على قبعة جديدة بأن النساء ظنن أنهن مستطيعات أن يسخرن منا فهبوا انه كان هو الشيطان نفسه فمن يكون الشيطان؟ ابصقوا عليه ! ولو قد وقف امامى فى هذه اللحظة لسخرت منه ، ولعنة الله على أن لم افعل ! » .

وصاح احد الحاضرين : « وما بال وجهك قد علاه كل هذا الشحوب ؟ » وكان هذا الضيف اطول من القوم جميعا برأس ، لا ينفك عن الظهور بمظهر الرجل الباسل .

« انا ؟ لاشك انك كنت تحلم ! »

وضحك الضيوف ، وابتسم البطل المزهو بنفسه ابتسامة السرور والرضا .

وقال آخر : « كانى به يستطيع الآن ان يصفر ويشحب لونه ! ان خديه فى مثل حمرة الخشخاش ، وليس هو تسيبوليا (١) الآن ، بل هو بنجرة ، أو قل الســترة الحمراء التى افزعت القوم ذلك الفزع الشديد »

ودارت القنينة على الضيوف المجتمعين حول المائدة ، فارتفعت روحهم المعنوية ، وكان شيريفيك لايزال يساوره القلق من السترة الحمراء التى ابت ان تريح نفسه المستطلعة فهتف يقول لصديقه :

« حدثنى بالله يا صديقى ! فقد دابت على استصلاح امر هــذه السترة اللعينة فلم يجيبنى احد اجابة صريحة » .

« ليست هذه السترة بالأمر الذى يصح الكلام فيه والليل يوشك ان يرخى سدوله ، على اننى سأحدثك بأمرها ارضاء لك ولهــؤلاء الأصدقاء الأعزاء الذين يتوقون مثلك الى معرفة هذه العجائب سواء بسواء ، فانصت الى ! »

وعندئذ حك تسيبوليا كتفيه وجفف وجهه بطرف قميصه واتكأ بذراعيه على المائدة وانشأ يقول :

« يحكى ان شيطانا طرد من الجحيم ، ولايدرى السبب فى طرده الا الله » .

وقاطعه شيريفيك قائلا : « ولكن كيف ؟ اجل كيف حدث ان شيطانا طرد من الجحيم ؟ »

« لست ادرى ياصديقى ، ولكنه طرد من الجحيم حقا كما يطرد الانسان كلبا من بيته ، ولعله فكر فى أن يأتى عملا صالحا فدلوه على طريق الباب ، وتملك الشيطان المســكين حنين شــديد الى

---

(١) تسيبوليا فى الاوكرانية معناها « البصل »

دياره ، واضـــناه الشوق الى الجحيم ، حتى هان عليه أن يشنق نفسه ، على انه لم يجد فى الأمر حيلة ، فأخذ يروح عن نفسه بشرب الخمر ، واستقر به المقام فى تلك الصـــومعة المتهدمة التى رايتموها فى سفح التل ، وهو مكان لايمر به رجل صالح اليوم الا رسم علامة الصليب ، واصبح هذا الشيطان فاسقا خليعا حتى بز فى خلاعته الشبان جميعا ، وراح ينفق جميع يومه فى الخمارة ».

وما أن بلغ الرجل فى حديثه هذا الموضع حتى قاطعه شيريفيك الصارم مرة أخرى :

« ما هذا الذى تقول ؟ كيف يسمح انسان لشيطان بأن يدخل الخمارة ؟ اللهم انزل علينا جميعا بركتك ! .. اليست له مخالب وقرون ؟ »

« آه ! صدقت كل الصدق ــ ولكنه كان يرتدى قبعة وقفازا ، فمن ذا الذى كان يستطيع أن يعرفه ؟ وادمن الشـــيطان الشراب حتى شرب بكل ما كان معه من نقود ، فأقرضوه كثيرا ، ولـــكنهم أمسكوا يدهم عنه آخر الامر ، فاضطر الى رهن سترته الحمراء بأقل من ثلث قيمتها عند اليهودى الذى كان يبيع الفودكا فى تلك الأيام فى سوق سوروتشنتسى . احل رهنها وقال لليهودى : «تذكر ايها اليهودى اننى ساعود فى طلب سترتي فى خلال سنة ، فاحرص عليها ! » ثم اختفى ولم يعد يراه احد . وكان نســـيج الســـترة افضل من اى نسيج تستطيع الحصـــول عليه حتى من ميرجورود نفسها ، كما كان لونه الأحمر يتوهج توهج النار بحيث يعز عليك ان ترد بصرك عنه. ولاح لليهودى ان السنة التى استمهله الشيطان اياها حقبة طويلة لايستطيع ان ينتظر حتى تنتهى ، فحك راســـه واستقر رأيه آخر الأمر على بيعها وباعها بخمسين روبلا أو نحوها لسيد كان مارا به »

« ونسى اليهودى كل ما يتعلق بالأجل المضروب، الا ان رجلا جاء ذات مساء وقال له : « هلم أيها اليهودى ، واعطنى سترتى!» ولم يعرفه اليهودى أول الأمر، فلما أمعن النظر فيه تظاهر بانه لم يره من قبل ، وقال له : « اى سترة ؟ ليست عندى سترة ، ولا اعرف من امر سترتك شيئا ! » وانصرف الرجل الآخر، وما ان أوشك الليل ان يرخى سدوله حتى أغلق اليهودى باب غرفته من دونه ، واخذ فى عد النقود التى احتفظ بها فى صناديقه ، والقى على كتفيه قطعة من النسيج ، واخذ يتلو صلاته على سنة اليهود، واذا به يسمع فجاة حفيفا فرفع راسه ، وراى الخنازير تدس انوفها فى النوافذ جميعا ! » .

وفى تلك اللحظة نفسها طرق آذانهم صوت غامض لايختلف عن قباع الخنازير ، فاصفرت وجوه القوم جميعا ، وتجلت قطرات من العرق على وجه تسيبوليا .

وصاح شيريفيك وقد تملكه الرعب : « ما هذا ؟ »

فأجاب تسيبوليا مرتعد الأوصال فرقا : « لا شىء »

وقال واحد من الضيوف : « ماذا ؟ »

« هل قلت شيئا ؟ »

« كلا ! »

« من الذى قبع ؟ »

« الله يعلم ما الذى دهانا ! فليس هنا من احد سوانا »

واخذوا يتلفتون حولهم فزعين مروعين ، وبدءوا ينقبون فى أركان الغرفة ، وكانت خيفريا أقرب الى الأموات منها الى الأحياء .

وقالت بصوت مرتفع : « لستم الا جماعة من النساء لا اكثر

ولا اقل ! اتسمون انفسكم قوزاقا ؟ وى ! ما احراكم ان تقبعوا فى اماكنكم تندفون الصوف وتغزلونه ! لعل احــدكم .. او ربما صرت اريكة رجل منكم فلم يلبث الاضطراب ان شـــاع بينكم حتى لــكأنــكم طائفة من المجانين ! »

واخجل كلام خيفريا القوم ، وحملهم على ان يستجمعوا شتـات انفسهم ، وجرع تسيبوليا جرعة من الأبريق واسترسل فى رواية قصته قائلا :

« واغشى على اليهودى خوفا ورعبا ، ولـكن الخنازير تسلقت الكوخ بقوائمها التى تبلغ فى طولها مبلغ قوائم ابى ساق ، ودخلت من النوافذ واعادته الى وعيه فى لمح البصر بسيور مجدولة من الجلد جعلتــه يقفز قفزات اعلى من هذه الروافد ، ووقع اليهودى على اقدام الخنازير ، واعترف لها بكل شىء ، الا انه لم يك فى الامكان رد السترة بسرعة ، فقد سرقها من السيد لى الطريق نورى باع امراة اياها ، واعادتها المراة الى ســوق سوروتشنتسى ، على ان الناس احجموا من بعــد عن شراء اى شىء منها ، وعجبت المراة لذلك ، واســتبد بها العجب ، ثم أدركت آخر الأمر سر انصراف الناس عنها ، ولاشك ان السترة الحمراء كانت هى السبب فى بوار تجارتها ، ولم يكن بعجيب اذن ان تشعر المراة بالاختنــاق كلما ارتدت هذه السترة ، فبادرت الى القائها فى النار بلا تفكير ولا روية، بيد ان السترة الشيطانية ابت ان تحترق ! وقــالت المراة تحدث نفسها : « انها لعطية من الشيطان ! » ، وافلحت فى دسها فى عربة فلاح كان قد جاء الى السوق يبيع زبده ، وتملك السرور ذلك الفلاح الغبى ، واحجم الناس جميعا عن طلب شىء من زبده ، وقال الرجل بينه وبين نفسه : « لا شك ان يدا شريرة قد دست هذه السترة على ! » وتناول فاسه وقطعها اربا اربا ، ثم نظر اليها ، فاذا بكل

قطعة منها تنضم الى الأخرى حتى استوت جميعا ، وعادت الستزة سليمة كما كانت ! فرسم علامة الصليب ، وانهال عليها بالفاس مرة أخرى ، ونثر القطع فى أرجاء المكان كله ثم رحل . وراح الشيطان منذ ذلك الحين يجوب انحاء السوق كلمـــا انعقدت متخذا صورة خنزير يقبع ويجمع قطع سترته . ويقول الناس الآن : « انه لم يعد ينقص السترة سوى الكم الأيسر ، وأصبحوا من يومها يجتنبون هذا المكان ، وانقضت عشر سنوات منذ أقيمت السوق فيه ، الا أن مساعد القاضى فى ساعة نحس .. »

وجمدت بقية العبارة على شفتى المتحدث ، فقد انبعث من النافذة قعقعة عالية وسقطت الألواح الزجاجية ترن على الأرض ، واطل من النافذة وجه خنزير بشع الخلقة وراح يحملق وهو يدير عينيه كأنه يتساءل : « ماذا تفعلون هنا ايها القوم الصالحون ؟ » .

كان ذيله بين ساقيه كانه الكلب ، وقد سرت الرعدة فى جميع أوصاله كانه قايين وتقاطر الدم من انفه .

(من «الانياذة» لكوتلياريفسكى)

واخرس الرعب لسان كل من كان فى الفرفة ، وجلس تسيبوليا جامدا كالصخر وقد فغر فاه وجحظت عيناه حتى كادتا تنطلقان من محجريهما كأنهما رصاصتان ، وتوقفت أصابعه الممدودة فى الهواء وكفت عن الحركة ، وقفز العملاق الرابض الجأش قفزة عالية وقد امتلأت جوانحه خوفا ورعبا ، فارتطم رأسه والرافدة ، وتزحزحت الألواح وسقط ابن القس مرتطما بالأرض ارتطاما سمع له هبدة وصوت شىء يتحطم .

وصاح واحد من القوم فى صوت اليائس ، وقد اعتلى أريكة من الأرائك فزعا مرتاعا ، وراحت ذراعاه وساقاه تضطرب وتضطرب « آه ، آه ، آه » .

وصاح آخر وهو يخفى رأسه تحت فروة من فراء الأغنام : « النجدة ! » .

وايقظ الرعب الذى حل بهذا الرجل الآخر تسيبوليا من سباته ، فزحف مرتجف الأوصال يلوذ بنقبة زوجته مختفيا تحتها ، وتسلق العملاق الرابض الجأش الى الموقد على الرغم من ضيق فتحته ، واغلق بابه من دونه ، ووضع شيريفيك قدرا على رأسه بدلا من القبعة ، واندفع صوب الباب كالقط اذا لسعه الماء الساخن ، واخذ يركض فى الشوارع كمن به جنة ، ولم يحمله على التمهل فى سيره الا التعب والكلال ، وكان قلبه يضرب كأنه معصرة من معاصر الزيت ، وتصبب

العرق منه كالأنهار ، واوشك أن يقع على الارض من فرط ما ناله من اعياء ، واذا به يسمع فجأة شخصا يركض خلفه ، فضاقت انفاسه.

وصاح وقد فقد صـــوابه من الرعب واخذ يضاعف جهـــده : « الشيطان ! الشيطان ! » ثم سقط بعد لحظة على الارض مغشيا عليه.

وانبعثت صيحة من خلفه : « الشيطان ! الشيطان ! » ، ولم يشعر الا بشيء يقع فوقه محدثا صوتا كصوت الارتطام ، وفقد وعيه وانبطح فى عرض الطريق فاقد الحس لا حراك به كجثـــة مســـجاة فى نعشها الضيق .

ـ ٩ ـ

كان من الامام انسانا عاديا
كسائر البشر ، أما من الخلف
فكان ـ علم الله ـ كالشيطان !

(من قصة شــعبية)

وجلس فجاة واحد من الجمع الذين التمسوا المبيت فى العراء وقال:

« هل سمعت هذا يا فلاس ؟ لقد كان واحد من الناس يتحدث هنا عن الشيطان ! » .

ودمدم رجل من النور بقربه وهو يتمطى : « واى شان لى فى هذا فليتحدثوا عن كل ما فى الجحيم من الشياطين ، فان ذلك لا يهمنى ! »

« ولكنه كان يصرخ مستغيثا كانه يشنق ! » .

« ان المرء ليصبح هاتفا باى شيء فى نومه » .

« ربما ، ولكن يجب ان نلقى نظرة على الأقل ، اضيء لنا نورا ! » .

وانتصب النورى الآخر على قدميه وهو يدمدم بينه وبين نفسه ، واشعل سيلا من الشرر استطار كومضات البرق ونفخ فى الصوفان ، ثم حمل فى يده « الكاجانتس » وهو المصباح الأوكرانى المألوف الذى يتألف من جرة مكسورة ممتلئة بدهن الضأن ، وسار يضيء الطريق أمامه .

« قف ! ان ثمة من يرقد هنا ! سدد الضوء نحو هذا الموضع ! » .

ولحق بهما بعض رفاقهما .

« ما الذى وجدت يا فلاس ؟ » .

« يبدو لى انهما رجلان احدهما فوق الآخر ، ولا استطيع ان اتبين : من منهما الشيطان ؟ » .

« عجبا ، هو ذلك الذى يعلو الآخر ؟ » .

« انه امراة ! » .

« اذن فهاك الجواب ، انها هى الشيطان ! » .

وانفجر الجمع ضاحكين حتى اوشكوا أن يوقظوا الشارع كله .

وقال واحد من النظارة : « امراة تركب رجلا ! لعمرى انها تعلم كيف تركبه ! » .

قال آخر وهو يلتقط قطعة مكسورة من القدر التى كان نصفها فقط لا يزال يعلو راس شيريفيك : « انظروا ايها الرفاق ! ما ابدع القبعة يرتديها هذا الفتى الظريف ! » .

وعلت ضوضاء الجماعة وضحكاتهم فدبت الحياة فى جثتى صاحبينا ، وأخذ شيريفيك وزوجته اللذان ـ كانا ممتلئتين بالرعب مما حل بهما ، يحملقان فى فزع فى وجوه النور السمر التى بدت لهما فى الضوء الخافت المتراقص كوجوه عشيرة همجية من الأقزام سبحت فى دخان الجحيم الكثيف وغشيها ليل دامس لا ينجاب له ظلام .

- ١٠ -

الا سحقا لك ياشبح الشيطان ،
واغرب عنا بوجهك !
(من ملهاة أوكرانية)

وتنفس نسيم الصباح العليل فشمل أهل سوروتشنتسى الذين كانوا ينفضون سلطان الكرى عن عيونهم ، وتصاعدت سحب الدخان من جميع المـداخن لتلقى الشمس الطـالعة ، وبدأت السوق تجيش بدبيب الحياة ، واخذت الأغنام تثغو والجياد تصهل ، وعلا نقيق الاوز وصوت نساء السوق فشملا ارجاء المخيم كله مرة اخرى ، واختفت بانبلاج الصبح تلك القصص المرعبة عن السترة الحمراء التى أثارت الفزع فى ساعات الليل الحافلة بالغموض والأسرار .

وكان شيريفيك يتمطى ويتثاءب مغالبا النوم فى صـومعة صـديقه تسيبوليا المسقوفة بين الثيران وأكياس الدقيق والقمح ، والظاهر أنه لم يكن يود ان يفارق احلامه ، الا أن صوتا قطع عليه حبل خيالاته ، صوتا الفه لموقده ، ذلك الملجأُ الأمين الذى كان يقضى فوقه ساعات الكسل والاسترخاء ، أو ألفه الحانه التى يملكها ابن عمه ، ولا تبعد عن داره الا عشر خطوات أو نحوها .

وصرخت زوجه الحنون فى أذنه جاذبة ذراعه بكل ما أوتيت من قوة : « انهض ! انهض » .

ولم يجبها شيريفيك ، بل نفخ أوداجه ، وأخذ يلوح بذراعيه كأنه يقرع طبلا .

وصاحت المراة متحاشية ذراعيه اللتين أوشكتا أن تضربا وجهها : « أيها الأبله المخبول ! » .

واستوى شيريفيك جالسا ، وفرك عينيه وتلفت حوله .

« فليأخذني الشيطان يا عزيزتي ان لم اك قد تخيلت وجهك طبلا ، ولم اجد بدا من أن اقرعه ، كما يفعل الجندي المسكوفي بليل ، أجل اقرعه بوجوه تلك الخنازير التي كان تسيبوليا يحدثنا بأمرها » .

« كفاك هراء ! هلم وخذ الفرس الى السوق ! فما نحن الا قوم هازلون ، لقد جئنا الى السوق ولم نبع حفنة من القنب » .

فأمن شيريفيك على كلامها بقوله : « هذا صحيح ، وسيضحكون منا الآن بلا شك » .

« اسرع ! اسرع ! انهم يضحكون منك الآن فعلا ! » .

واسترسل شيريفيك يقول وهو يتثاءب ويحك ظهره محاولا كسب الوقت : « ولكني لم أغتسل بعد » .

« ما انسبه من وقت تشغل فيه بالنظافة ! متى كنت تهتم بأمرها ؟ هاك منشفة ، امسح بها وجهك الدميم » .

واختطفت شيئا كان ملقى منفوشا بجـــوارها ، ثم ألقت به في ذعر ، وكان هذا الشيء هو ردن السترة الحمراء !

ورات زوجها وقـد شل الفزع حركته واخذت اسنانه تصطك ، فاستعادت رباطة جأشها ، وعادت تكرر عليه القول : « اسرع وامض الى عملك » .

وغمغم بينه وبين نفسه وهو يحل زمام فرسه ويقودها الىالسوق:

« يا للتوفيق الذى سنلاقيه فى البيع الآن ! لا عجب اننى أحسست وانا أتهيأ لهذه السوق الملعونة بهم ثقيل يجثم على قلبى كأنما انقض احدهم ظهرى ببقرة نافقة ، وقد حاولت الثيران مرتين أن تعود أدراجها الى المنزل ، اما وقد بدأت الآن افكر فى الأمر فانى لأذكر أننا شرعنا فى رحلتنا يوم اثنين ، فساءت أحوالنا جميعا ! واستبد القلق بهذا الشيطان الملعون ! وربما ذهب بك الظن الى أنه قد يرتدى سترته بعد أن غاب أحد كميها ، ولكن كلا ، فانه لا يستطيع أن يترك أهل الاستقامة يسيرون فى طريقهم ! ولو كنت أنا الشيطان ــ لا قدر الله ــ فهل تظنين اننى كنت أسعى ــ ليلا باحثا عن متاع من الخرق الملعونة ؟ » .

وفى هذه اللحظة انبعث صوت أجش قطع تأملات شيريفيك ، وانتصب واقفا أمامه نورى طويل القامة .

« ما الذى تعرضه للبيع أيها الرجل الصالح ؟ » .

ولزم شيريفيك الصمت لحظة ، ثم نظر الى النورى من قمة رأسه الى أخمص قدميه وقال فى صوت هادىء لا اضطراب فيه ، ولم يتعلثم أو يترك العنان .

« تستطيع أن ترى بعينيك ما أبيع » .

فقال النورى وهو ينظر الى العنان الذى كان شيريفيك ممسكا به السرج .

« أجل السرج ، اذا كانت الفرس تشبه السرج ! » .

« انى لأحسب انك علفتها قشا أيها الجار ! » .

« قشــــا ؟ » .

وعندئذ هم شيريفيك أن يجذب العنـان ليقود فرسه الى الأمام مظهرا لهذا المفترى العياب الصفيق الوجه مبلغ كذبه ، الا أن يده

تحركت فى سهولة عجيبة ولطمت ذقنه هو ، وألقى شيريفيك ببصره فوجد فى يده عنانا مقطوعا كان قد ربط بعنان الفرس ، يا للهول ! لقد وقف شعر راسه ، اذ راى قطعة من كم احمر ! فبصق ثم رسم علامة الصليب ، وهرب من هــذه العطية غير المنتظرة ، وجرى بأسرع ممــا يجرى رجل فى نصف عمره ، ثم اختفى وسط الزحام .

- ١١ -

ضربوني من اجل ما في يدى
من قمح يخصني .
(مثل)

وصاح بعض الغلمـــان فى الدرب الذى ينتهى به الشـــارع : « امسكوه ! امسكوه ! » ، وأحس شيريفيك بأيد قوية تمسك به فجأة .

« قيدوه ! فانه الرجل الذى سرق فرس رجل امين » .

« خبرونى بارك الله فيكم ! لم تقيدونى ! » .

« انظروا كيف يسأل عن السبب ! ما الذى حملك على أن تسرق فرسا من شيريفيك الفلاح ؟ » .

« لقد فقدتم عقولكم أيها الغلمان ! فهل سمع احد قط برجل يسرق نفسه ؟ »

« هذه حيلة قديمة ! حيلة قديمة ! والا فماذا دهاك حتى كنت تركض بأقصى سرعتك كأن الشيطان نفسه كان فى أعقابك ؟ » .

« ان أى انسان ليركض اذا كانت سترة الشيطان . . . » .

« هذه الخدعة لا تنطلى علينا أيها الرجل الساذج ! رويدك ، ولتنالن جزاءك من مساعد القاضى ، وليعلمنك الا تسير ملقيا الرعب فى قلوب الناس بحكايات ترويها عن الشيطان ! » .

وانبعثت صيحة من الطرف الآخر من الشـــارع : « امسكوه ! امسكوه ! فهذا هو ! هو بعينه ! » .

ورأى شيريفيك صديقه تسيبوليا فى أشد حالات الفزع والرعب وقد ربطت يداه خلف ظهره وراح بعض الغلمان يقودونه .

وقال واحد منهم : « ان ثمة أمورا غريبة تحدث هنا ! ولتسمعن الى مايقول هـذا النصـاب ! وحسبكم أن تنظروا الى وجهه حتى تتبينوا أنه لص ! وقد سألناه : لم أطلق لساقيه العنان كالمجانين ؟ فقال : انه دس يده فى جيبه ليخرج صندوق سعوطه فاذا بها تجذب بدلا منه قطعة من سترة الشيطان لم تلبث أن استحالت الى شعلة حمراء ، فولى الأدبار ! » .

« وى ! ان الطيور على أشكالها تقع ! وخير لنا أن نقيدهما معا ! » .

- ١٢ -

قال صاحبنا الشقى المسكين :
« ما ذنبى اليكم ايها القـــوم
الصالحون؟وما بالكم تعذبوننى؟»
وماذا فعلت حتى تسيئوا الى؟
ثم هتف وقد انخرط فى البكاء
وانهمرت الدموع السخينة من
عينيه ، وامسك بخـاصرتيه :
« لماذا ؟ لماذا ؟ » .
(ارتيموفسكى ـ جـــولاك
« السـيد والـكلب »)

وسأل شيريفيك صاحبه تسيبوليا وهو يرقد مقيدا بجواره فى كوخ مسقوف : « لعل يدك امتدت حقا الى شيء يا صديقى ؟ » .

« أو منك ايضا أسمع هذا ايها الصديق ؟ الا شلت ذراعاى وساقاى ان كنت قد سرقت شيئا فى حيــاتى ، اللهم الا كعيكات بالقشدة مسكرة كنت أسرقها من أمى ، وانما كان ذلك قبل أن أبلغ العاشرة » .

« لم حل بنا هذا البلاء أيها الصديق ؟ ولكن مصيبتك أهون من مصيبتى ، فانك لم تتهم الا بسرقة غيرك ، ولكن ماذا فعلت أنا الشقى التعس حتى استحق هذه التهمة النكراء وارمى بسرقة فرسى من نفسى ؟ يخيل الى يا صاح انه قد كتب علينا يوم ولادتنــا أن يجافينا التوفيق ! » .

« ويل لنا نحن البائسين المنبوذين ! » .

ثم انفجر الصديقان ينتحبان :

قال جريتسكو وهو يدخل الكوخ : « ماذا دهاك ياسولوبى ؟ ومن قيدك هكذا ؟ » .

وصاح شيريفيك وقد تهللت أساريره : « آه ، جولوبوينكو ! هذا هو الشاب الذى كنت احدثك عنه يا صديقى ، الا فلينفذ فى الله قضاءه فى التو واللحظة ان لم يك قد جرع من الخمر ابريقا كاملا فى مثل حجم راسك تقريبا دون أن تهتز له شعرة ! » .

« فما الذى حملك اذن على الحط من قدر شاب مليح كهذا ؟ » .

واسترسل شيريفيك يقول مخاطبا جريتسكو : « يخيل الى ان الله جازانى على ما اسلفت فى حقه من اساءة ، فاصفح عنى أيها الشاب الكريم ، واقسم لك انه ليسعدنى ان اسدى اليك أى معروف ، ولكن ماذا كنت تنتظر منى ان افعل ؟ ان الشيطان قد ركب امراتى العجوز !» .

« لست ممن يذكرون الاســاءة ياسولوبى ، فان شئت أطلقت سراحك ! » .

ثم غمز بعينيه للفتيان الآخرين ، فهب أولئك الذين كانوا يحرسونهما انى فك وثاقهما : « ولكنك مطالب بأن تفى بوعدك أيضا ، الا وهو الزفاف ! ولنحتفل به ولنرقص حتى نحس بالألم يسرى فى سيقاننا سنة بطولها من بعده ! » .

وقال شيريفيك وهو يضرب كفا بكف : « مرحى ! مرحى ! انى لأشعر بالسعادة تغمرنى كأنما قد حمل المسكوف امراتى وهربوا بها ، وما الذى يدعونى الى معاودة التفكير فى الأمر ؟ ليكونن الزفاف اليوم ان خطأ وان صوابا ، وهذا هو كل ما فى الأمر ! » .

« تذكر يا سولوبى هذا الوعد ، وسأوافيك بعد ساعة ، ولتذهب الآن الى دارك فتجد من يطلب منك شراء فرسك وقمحك » .

« كيف ؟ هل عثرتم على الفرس ؟ » .

« اجــل » .

وعقد الفرح لسان شـــيريفيك ، فوقف بلا حراك يشيع جريتسكو بنظراته ، وقال النورى الطويل القامة للشاب الذى كان يغذ السير :

« ما قولك يا جريسكو ؟ اظن انك لا تستطيع أن تزعم أننى أفسدت الأمر ! لقد أصبحت الثيران الآن من حقى ، اليس كذلك ؟ » .

« بلى ! » .

- ١٣ -

لا تراعى ، لاتراعى ياحبيبتى
والبسى حـناءك الأحمر وطئى
أعـــداءك تحت قـدميك حتى
يصلصل كعبـــاك المـكسوان
بالحديد وتخرس ألسنة أعدائك
فلا يبدوا حراكا !

(اغنية زفاف)

جلست باراسكا وحيدة فى الكوخ تتأمل وتتفكر مسندة ذقنها الجميل الى يدها ، وطافت براســـها الجميل احلام وأحلام ، وكانت تداعب شفتيها القرمزيتين ابتسامة من حين الى حين ، ويخالجها شعور سار مفرح فترفع حاجبيهـــا الأسودين ، ثم تغشاها سحابة من شجن ، فتقطبهما فوق عينيها العسليتين الصافيتين .

وهمست فى لهجة تنم عن الشك : « ولكن كيف تكون الحال اذا لم يتحقق ما قال ؟ وكيف اذا رفضوا أن يزوجونى اياه ؟ وكيف وكيف .. كلا ، كلا ، هذا لا يمكن ان يكون ابدا ! ان زوجة أبى تفعل ما تشاء ، فلم لا افعل انا ما أشاء ؟ وقد طبعت على العناد الشديد ، أنا أيضا . الا ما أملحه ! وما ابدع عينيه السوداوين فى تألقهما!ولكم يطيب لى أن اسمعه يقول : « حبيبتى باراسكا ! » ، ويا لسترته البيضاء التى تناسبه ! على أن حزامه يجب أن يكون اكثر تألقا ! وسأنسج له حزاما عندما تستقر بنا الحال فى كوخ جديد » .

وأخذت من صدرها مرآة صغيرة لها اطار من الورق الأحمر كانت قد اشترتها من السوق ، وراحت تحدق فيها وقد خالجها شعور خفى بالرضا ، ثم مضت تقول : « لا اتمالك نفسى من السرور عندما أفكر فى أننى سألقاها يوما فى مكان ما .. ولسوف تنفجر غضبا قبل أن أنحنى لها ! جل يا زوجة الأب ، لقد نلت من كنتك مافيه الكفاية ، ولن أنحنى لك الا اذا نبتت الأزهار فى صميم الصخر وحنت شجرة السنديان على كما تحنو شجرة الصفصاف . ولكن لقد كدت أنسى .. فانى أريد أن أجرب لبس قبعة المرأة المتزوجة ، ولو كانت قبعة زوجة أبى، هل تناسبنى ؟ » .

ثم نهضت وقد أمسكت المرآة بيدها وحنت رأسها لترى خيـاله فيها ، وراحت تسير فى الغرفة بحذر كأنما تخشى الوقوع ، فلم تر أديم الغرفة تحت قدميها ، بل رأت السقف تعترضه الألواح المستندة الى الروافد ، وهو الذى وقع منه ابن القس اخيرا ، كما رأت الأرفف وقد رصت عليها القدور .

وهتفت ضاحكة : عجبـا ، اننى ابدوا كالطفل يخشى أن يخطـو خطـوة ! » .

وشرعت تدق الأرض بقدميهـــا فى لطف ، وكلما مضت فى ذلك ازدادت جرأة ، ثم وضــعت آخر الأمر يدها اليسرى على ردفها ، وراحت ترقص مجلجلة بكعبيها المكسوين بالمعدن مادة المرآة امامها صادحة بأنشودتها المحبوبة :

أيتها « الونكة » الخضراء الصغيرة (١)
التفى واهبطى الى !
وأنت أيتها الحبيبة الـكحيلة العين

---

(١) الونكة : نبات مزهر .

اقبلى على !
أيتها الوتكة الخضراء الصغيرة
التفى واهبطى ثم اهبطى الى !
وانت ايتها الحبيبة الـكحيلة العين
اقبلى على اكثر واكثر !

واطل شيريفيك من الباب فى تلك اللحظة فرأى ابنته ترقص أمام المرآة ، فوقف ساكنا ، وظل يرقبها طويلا وهو يضحك من هذه النزوة الغريبة التى تملكتها . وكانت الفتاة فيما يبدو قد استغرقت فى الرقص فلم تلحظ شيئا وما أن سـمع الأب نغمات الأنشودة المألوفة حتى شعر بالدم يتدفق فى عروقه ، فخطا الى الأمام وطوح بذراعيه الى الوراء فى مرح ، وراح يرقص ناسيا كل ما كان ينبغى أن يفعله ، وانطلقت ضحكة عالية من فم صـديقه تسـيبوليا ، فأفزعت الأب وابنته جميعا !

« يا للمنظر البديع ! الأب وابنته يقيمان زفافا لحسابهما ! هيـا وعجلا فقد جاء العروس ! » .

وصبغت حمرة الخجل وجه باراسكا عند سماعها هذه العبارة ، حتى غدا أشد احمرار من الشريط الذى ربطت به راسها ، وتذكر أبوها الطروب واجبه .

فانشأ يقول وهو يتلفت حوله فى خجل : « هيا يا ابنتى » ولنعجل ! فقد استخف الفرح خيفريا اذ علمت اننى بعت الفرس ، ومضت تشترى لنفسها نقبات وهلاهيل من كل صنف ولون ، وعلينا أن ننتهى من الأمر جميعا قبل أن تعود » .

وما ان اجتازت باراسكا العتبة حتى شعرت بذراعى الشاب صاحب السترة البيضاء تطوقانها ، وكان ينتظرهاخارج الدار ومعه حشد من الناس .

وقال شيريفيك وهو يجمع أيديهما بعضهما الى بعض : « فليبارككما الله ولترتبط حياتكما ارتباط الزهر فى باقته ! » .

وما أن بلغ هذا الحد حتى انبعث الضجيج من بين صفوف القوم.

وصاحت شريكة حياة شيريفيك قائلة : والحشد الضاحك يدفعها الى الوراء : « فلتنشق مرارتى ولا أسمح بهذا ! » .

فقال شيريفيك فى برود وقد رأى رجلين قويين من النور يمسكان بيديها : « هدئى روعك يا امراة ! ان ما تم لا يمكن الرجوع فيه ، وانا لا أحب أن أسحب كلمتى ! » .

فصاحت خيفريا : « كلا ، كلا لن يكون هذا ! » ، ولم يلق أحد اليها بالا ، وأحاط عدد من الأزواج والزوجات بالعروسين السعيدين ، وأقاموا حولهما نطاقا راقصا لا سبيل الى اختراقه .

ولو ان انسانا راى هذا الحشد كله وقد جمع بين أفراده مشهد من الوحدة والانسجام اشاعتهما فى قلوبهم لمسة واحدة من قوس عازف الكمان ذى الشارب الطويل المفتول والسترة المغزولة فى البيوت لتملكه شعور غريب يعز عن الوصف . فقد انبعث رجال بدا من وجوههم العابسة انه لم تطف بها قط ابتسامة أو ظلها ، وراح كل من يلوذ بالحشد يدور ويرقص ، بل ان من قدر له أن يرى هذا المشهد ليتملكه شعور أكثر غرابة من ذلك واشد اعجازا اذا هو راى العجائز من النساء اللواتى تحمل وجوههن العتيقة برود القبر وهموده وقد شققن طريقهن بين صفوف الشباب الضاحكين الزاخرين بالحياة ، وكان الشراب وحده هو الذى يحملهن علىالقيام بأفعال تشبه أفعال البشر حتى لكأن هذا الشراب عامل بارع يحرك انسانا ميكانيكيا لا حياة فيه . لقد كانت هؤلاء النسوة اللاتى لايحفلن بشىء ولا يسرى فى أعطافهن مرح الشباب ولا يغمر قلوبهن أثر من عاطفة أو ومضة من ومضات التجاوب ، يهززن رءوسهن الثملة فى بطء وتمهل ، ويرقصن منساقات مع الحشد المرح الطروب ، دون ان يحفلن بالقاء نظرة على العروسين الشابين .

وأخذت أصوات الضحك والغناء والضجيج تخفت ثم تخفت ، وانطوى تغريد الكمان فى انغام مبهمة واهنة ثم تلاشى فى الفضاء . وكانت أصوات الأقدام وهى تدق على الأرض لاتزال تسمع من بعيد كأنها الهدير ينساب الى الأذن من مكان قصى ، وسرعان ما انتهىكل شىء الى سكون وخواء .

أليس هــذا هو حال الفرح ، ذلك الضيف الجميل المتقلب ، حين يولى عنـــــا ؟ وهيهــات أن تعبر النغمة الأخيرة عن السرور والانشراح ، فهى تسمع فى صداها هى نفسها رنة الحزن والخواء وتنصت اليه ذاهلة حيرى . ثم أليس هذا أيضا هو حال أولئك الصحاب الذين يلهون ويمرحون فى شبابهم الحر الطليق العاصف، ثم يغيبون واحداً بعد واحد فى خضم هذا العالم الواسع ، ويتركون خلهم القديم يعانى ما يعانى من الوحــدة والحسرة ؟ ألا ما أتعس حظ من يبقى بعدهم ! ان قلبه لينوء بالهم والحزن وحــده بلا معين ولا نصير !

ليلة عيد القديس يوحنا



ليلة عيد القديس يوحنا (١)

قصة حقيقية رواها قندلفت

لقـد اثر عن فوما جريجوريفتش انه كان يكره كراهة التحريم ان يكرر قصة من قصصه ، على انه كان يستجيب لذلك أحيـانا اذا اقنعه أحد ، فان فعل اقحم عليها شـيئا جديدا ، أو بدل فيها تبديلا يغير معالمها الأصلية حتى يلتبس أمرها عليك . وقـد حدث ان واحدا من هؤلاء الناس ــ ويصعب علينا نحن البسطاء ان نعرف كيف نسميهم ، ذلك انهم ليسوا من السماسرة ، وانما هم اقرب الى البياعين فى أسواقنا يستجدون ، ويخطفون ، وينشلون كل شىء ، ثم هم يخرجون كتابا صغيرا كل شهر أو كل أسبوع ، لايزيد فى حجمه على كتب القراءة المخصصة للأطفال ــ اجل، حدث ان انتزع أحد هؤلاء السادة هـــــذه القصة بعينها من فوما جريجوريفتش الذى نسى كل شىء عنها . وقد اتفق أن وصل هذا السـيد الشـاب الى بلتاوة ، وهو الذى حدثتكم بأمره وشيكا ، وقرأتم فيما أحسب قصته ، وكان يحمل معه كتابا صغيرا فتحه فى منتصفه ثم أطلعنا عليه ، وهم فوما جريجوريفتش بأن يضع نظارته على قصبة أنفه ، الا انه تذكر انه قد نسى اصلاحها بالخيط والشمع فناولنى الكتاب ، ولما كنت اعرف القراءة ولا ألبس النظارات شرعت اقرأ بصوت مرتفع ، وما ان قلبت صـفحتين حتى امسـك فوما جريجوريفتش بذراعى فجأة ثم قال :

---

(١) يوم عيد القديس يوحنا : عيد قديم من أعياد الصيف ، والاعتقاد الشائع أن السرخس يزهر ليلة العيد ، وأن من يقتطف زهرة يجد كنزا دفينا .

« انتظر لحظة ، وقل لى أولا : ماذا تقرأ ؟ »

ولا أخفيك ان سؤاله هذا أصابنى بشيء من الذهول .

« ماذا تعنى يافوما جريجوريفتش ؟ اننى أقرأ قصتك .. بل كلماتك بعينها » .

« من قال لك انها قصتى ؟ » .

« وأى دليل أفصح من هذا تريد ؟ لقـــد طبع هنا : رواها فندلفت كيت وكيت »

« لعنة الله على من طبع هذا ! وياله من وغد كاذب ! أوهكذا رويت أنا القصة ؟ أعيرونى اسماعكم ، سأقصها عليكم الآن » .

وانتقلنا الى المائدة وشرع فوما يقص علينا قصته .

كان جـدى « رحمة الله عليه ، وكتب عليه الا يأكل فى العالم الآخر الا الأرغفة المصنوعة من الدقيق الفاخر والكعك المصنوع من الخشخاش المخلوط بالشهد ! » قصاصا عظيما ، ما ان يشرع فى الحديث حتى تنصت اليه اليوم بطوله دون أن تحرك ساكنا . ولم يكن الرجل من طراز ثرثارى اليوم الذين يجعلونك تحس باحساس من يلتقط قبعته ويمضى بمجرد أن يراهم يبدءون فى نسج خيـوط روايتهم بطريقة يخيل اليك معها انهم ظلوا ثلاثة أيام لايجدون شيئا يأكلونه . وانى لأذكر جيدا كيف كانت أمى ، تلك السيـدة العجوز التى كانت على قيد الحياة وقتئذ ، تجلس فى أمسيـات الشتـاء الطويلة ، والصقيع يغطى نافذة كوخنا الصـغيرة ، ممسكة بيـدها المغزل تجذب منه خيطا طويلا وتهز المهد بقدمها منشـدة أنشودة يبدو لى انها لا تزال ترن فى أذنى حتى الآن . وكان المصباح يضيء الكوخ وهو يهتز ويرتجف كأنما كان يخشى شـيئا ، والمغزل يطن ونحن الأطفال نتكأكأ حول جدى منصتين اليه ، وكان الرجل قـد طعن فى السن حتى انه لم يهبط من الموقد فى السـنوات الخمس الماضية الا لماما . على ان رواياته العجيبة عن الأيام الخالية وعن غزوات القوزاق الزابورجيين والبولنديين والفعال المجيدة التى قام

بها بودكوفا وبولتورا كوزوخا وساجايداتشنى لم تك لتنال من اهتمامنا ما تناله القصص الخيالية المخيفة التى تتناول حوادث وقعت منذ أمد بعيد ، وكانت هذه القصص يقف لها شعر رأسنا دائما ، وتسرى الرعدة فى أجسامنا ، بل ان الفزع كان يستبد بنا أحيانا ، فاذا جن الليل بدا لنا كل شيء غريبا مخيفا . وكان الواحد منا يخرج فى بعض الأحيان من الكوخ لبعض شأنه ليلا ، فيخيل اليه ان زائرا من العالم الآخر قد اندس فى فراشه. الا فليحل بى القضاء ولا يكتب لى ان اعيش حتى اقص هذه القصة مرة أخرى ان كنت اكذب فى قولى بأن الشيطان فيما يخيل الى قد دفع سترتى فانطوت طى الوسادة . على ان أهم ما كانت تتصف به قصص جدى هو انه لم يكذب فى حياته قط ، بل ان كل ما رواه لنا قد وقع فعلا .

وسأقص عليكم الآن قصة من قصصه العجيبة ، وانى لأعلم ان طائفة كبيرة من ذوى الفطنة يشبجون فى المحاكم مايشبجون بل يقرءون الخط الحديث ، وان كانوا لايستطيعون اذا وضعت بين أيديهم كتاب صلاة بسيط ، أن يقرءوا حرفا واحدا منه ، ومع ذلك تجدهم قد برعوا أيما براعة فى التهكم والسخرية ! فهم يسخرون بكل ما تنبئهم به ، وهذا الكفر بدأ ينتشر فى أرجاء العالم كله ، عجبا ! انكم ستجدون مشقة فى تصديق ما أقول ، ولكن لتنزل بى نقمة الله والعذراء المقدسة ان كنت احنث فيما اقول . لقد بدرت منى ذات يوم كلمة عن الساحرات وكان بين القوم رجل جرىء القلب لايؤمن بهن ، وهأنذا قد عشت بفضل الله طوال هذه السنين وأدركت اناسا سهل عليهم الكذب أثناء الاعتراف بقدر ما سهل على ان أصيب شيئا من السعوط ومع ذلك فقد كانوا يرسمون اشارة الصليب ليستعيذوا من شر الساحرات ، ولكنهم اذا رأوا فى منامهم — ويحسن بى الا اذكر مايرون — فالله أعلم كيف يكون حالهم !

ولم يكن أحد يعرف حال قريتنا منذ سنوات طويلة تزيد على مائة عام على ما قال لنا المرحوم جدى ، فقد كانت دسكرة ، بل

أشد الدساكر فقرا ! كانت تتألف من اثنى عشر كوخا أو نحوها تناثرت فى الحقول دون ان تطلى بالملاط أو تعلوها سقوف مناسبة، ولم تك ثمة سياجات أو حظائر بمعنى الكلمة يمكن ان تحفظ بها الماشية أو العربات ، اذ كانت هذه الحياة مقصورة على الأثرياء ، اما نحن فياليتك شاهدت أمثالنا من الفقراء ، فقد ألفنا ان نحفر حفرة فى الأرض ونجعل منها كوخنا ! ولم يك أحد ليدرى مقام عباد الله هؤلاء الا من الدخان المتصاعد من هذه الحفرة ، وما أحراك أن تتساءل : لم يعيشون على هذا النحو ؟ ولم يكن السبب فى ذلك هو الفقر ، فقد كان جل الناس فى تلك الأيام من القوزاق يرجعون الى ديارهم بزاد وافر من الطيبات يحملونه من البلاد الأخرى ، وانما كان السبب هو ان هؤلاء القوم كانوا يرون ان اقامة الكوخ الصالح أمر عديم الجدوى ، ذلك ان الناس على تباين أشكالهم كانوا يجوبون البلاد وقتئذ كأهل القريم والبولنديين واللتوانيين ، بل ان المواطنين كانوا يهبطون علينا أحيانا عصابات عصابات ويجردوننا مما نملك ، وكانت تختلف علينا الحوادث من كل نوع وصنف .

وكثيرا ما كان يظهر فى تلك الدسكرة رجل ، أو قل شيطان فى صورة انسان ، فلا يدرى احد : لم جاء أو من اين جاء ؟ كان يشرب ويمرح ، ثم يختفى كأنه تبدد فى الهواء ، ولا يعود يسمع عنه أحد خبرا ، ثم يتجلى فجاة كأنه هبط من السماء ، وينطلق فى طرقات القرية التى كانت لا تبعد عن ديكانكا أكثر من مائة خطوة تقريبا ، وان لم يبق لها أثر الآن ، وكان يلحق ببعض القوزاق الشاردين حينا ، فترتفع عقيرتهم بالضحك والغناء ، وينفقون المال عن سعة ، وتسيل الفودكا من بين أيديهم كأنها الماء ، ويخص بعنايته الفتيات حينا آخر ، فيغدق عليهن الأشرطة والأقراط والقلائد حتى يحرن ، فلا يعرفن ماعساهن ان يصنعن بها ، وكانت الفتيات بطبيعة الحال يفكرن مرتين قبل ان يتقبلن هداياه ، ذلك ان الشك كان يساورهن ، فمن يدرى ؟ لعل الشيطان نفسه هو مصدر تلك الهدايا ، وقد تحدثت عمة جدى فى هذا الأمر ، وكانت صاحبة

حانة على الطريق الذى يعرف اليوم بطريق اوبوشنيا حيث الف باسافريوك ـ وهذا هو اسم ذلك الفتى الشيطان ـ ان يختلف اليه كثيرا يلهو ويمرح . أجل تحدثت عمة جدى فقالت : انها ما كانت لتقبل هدية منه ولو وهبوا لها كنوز الأرض جميعا ، ولكن كيف كان يتاح لهن الرفض ؟ وقد كان الرعب يتملك الجميع اذا قطب حاجبيه الكثين ، والقى من تحتهما بنظرة تجعل أقوى الأقوياء يولى الأدبار . واذا اتفق وقبلت فتاة هدية منه فقد كان من المحقق ان يزورها فى الليلة التالية خل من خلانه ينزل الى المستنقع وقد نبتت القرون فى رأسه ، ويحاول خنقها اذا كانت تلبس قلادة أو يعض اصبعها اذا كانت تلبس خاتما ، أو يشد شعرها اذا كانت تضع فيه شريطا ، اذن فلعنة الله على هداياه الجميلة ! على ان اشق ما فى الأمر هو انه كان من المستحيل عليك التخلص من هذه الهدايا ، فان القيت بها فى الماء طفت القلادة الملعونة أو الخاتم الملعون ، وعاد الى يديك مباشرة .

وكان فى القرية كنيسة ، هى كنيسة القديس بانتيلى ، ان لم تك خانتنى ذاكرتى ، وكان قسيسها فى تلك الأيام هو الأب افناسى ، طيب الله ثراه ، وقد لاحظ افناسى ان باسفريوك لم يختلف الى الكنيسة قط حتى فى أحد اعياد الفصح ، فحاول أن يلومه وينذره بالعقاب تنزله به الكنيسة ، ولكن لا حياة لمن تنادى ! فقد مر باسافريوك بحذائه مرة حتى كاد يحف به وأجابه صائحا : «استمع الى ياسيدى الصالح ، لتلزمن حدك ، ولا تتدخل فى شئون غيرك من الناس ، الا اذا كنت تريد ان يغص حلقك الذى يشبه حلق التيس بالبليلة الساخنة » ، فأى فائدة كانت ترجى من هذا الفتى الملعون ؟ لقد اكتفى الأب افناسى بأن أعلن ان كل من يعاشر باسافريوك يصبح كاثوليكيا وعدوا لكنيسة الله وللناس أجمعين .

وكان فى القرية نفسها قوزاقى يدعى كورز يستخدم عاملا عرفه الناس باسم بترو المقطوع النسب ، وربما كان السبب فى ذلك انه لم يكن يذكر والديه أحد ، وقد جرى سادن الكنيسة على القول

بأن والديه ماتا بالطاعون وهو بعد فى السنة الأولى من عمره ، على ان عمة جدى كانت تنكر ذلك كل الانكار وتبذل قصارى جهدها فى خلع الأنساب عليه . على ان بترو المسكين لم يك يهتم بأنسابه اقل اهتمام . وكانت هذه المرأة تقول : ان اباه لا يزال فى زابوروجى ، وان الترك اسروه ، وقاسى على ايديهم ألوانا من العذاب لايعلمها الا الله ، ثم هرب بطريقة عجيبة متنكرا فى زى خصى . على ان الفتيات ذات الحواجب السود والغيد من النساء لم يكن يحفلن بنسبه أقل احتفال ، بل اكتفين بالقول بأنه لو ارتدى رداء جديدا ، ولبس قبعة سوداء من فراء استراخان وحلاها بقنزعة زرقاء ، وتمنطق بحزام احمر ، وامتشق حزاما تركيا ، وحمل فى احدى يديه صوتا وفى اليد الاخرى غليونا جميلا ، لبز جميع شبان الناحية . الا ان بترو المسكين لم يك يملك الا سترة رمادية واحدة فيها من الثقوب اكثر مما فى جيب اليهودى من القطع الذهبية . ولم يكن هذا هو بيت القصيد ، وانما كان بيت القصيد هو انه كانت لكورز العجوز ابنة رائعة الحسن لا أحسب انكم رأيتم لها مثيلا من قبل ، وكانت عمة جدى تقول ، والنساء كما تعلمون يؤثرن تقبيل الشيطان ، وقاكم الله ، على ان يصفن الفتاة بالحسن : ان وجنتى الفتاة المكورتين كانتا تحاكيان الخشخاش نضرة وبهاء اذ يبدو فى أرق حلله الوردية حين يتالق وقد جلله الندى ونشر أوراقه وراح يتأنق فى ضوء الشمس المشرقة ، وان حاجبيها الشبيهين بالعقود السود تشتريها فتياتنا اليوم من البائعين المسكوف المتجولين ليعلقن فيها الصلبان أو قطع النقود ، كانا قد سويا فى اجمل تقويم حتى بدوا انهما يحدقان النظر فى عينيها الصافيتين ، وان فمها الصغير الذى كان الفتيان يكادون يلتهمونه بأنظارهم التهاما ، قد تجلى للناس كأنما خلق ليصدح بأنغام البلابل ، وان شعرها الذى يشبه فى سواده الليل الفاحم ويحاكى فى نعومته نبات الكتان الفض ، كان يسترسل فى ثنيات غزيرة على سترتها الموشاة بالذهب « ولم تكن فتياتنا فى تلك الأيام يضفرن شعورهن ضفائر يربطنها بالأشرطة الزاهية اللون

ولا كتب الله لى أن اعود فأسبح بحمده مع المرتلين ان احجمت عن تقبيلها على الفور الآن ، على الرغم من الشيب الذى اخذ يدب فيما بقى لى من شعر فى راسى ، وعلى الرغم من زوجتى العجوز التى تحل دائما عندما يقتضي الأمرغيابها . على انكم تعلمون جميعا ماعساه أن يحدث اذا أقام فتى بالقرب من فتاة . لقد كانت آثار الحذاء الأحمر الصغير تشاهد ، قبل مطلع الشمس ، فى البقعة التى كانت بيدوركا تحادث فيها بترو ، على ان كورز لم يكن ليساوره فى الأمر أدنى شك ، لولا ان بترو ــ ولاشك ان هــذا من فعــل الشيطان ــ ركب رأسه يوما فطبع على شفتى الفتاة القوزاقيــة الورديتين قبلة قوية فى غرفة الانتظار دون ان يستوثق تماما من انه بعيد عن عيون الرقباء . وقد اغرى ذلك الشيطان نفســه ــ وليرين ابن الكلب هذا الصليب المقدس فى منــامه ! ــ بأن يدفع الرجل العجوز الى أن يفتح البــاب ، ثم وقف كورز مشــدوها ، وتعلق بالباب فاغرا فاه ، والظاهر ان القبلة الملعونة أدارت راســه تماما حتى بدت له أعلى صوتا من الرطمــة تصيب جــدار المدوك يجلجل به الفلاحون فى أيامنــا لطرد الأرواح الشريرة ، اذ كانت تعوزهم البنادق والبارود .

وافاق كورز من ذهوله ، فجذب سوط الركوب الخاص بجده من الحائط ، وهم بأن يهوى به على ظهر بترو المسكين ، واذا بايفان اخى بيدوركا البالغ من العمر ست سنوات يهرع الى الغرفة ويطوق بذراعيه ساقى العجوز ، وقد تملكه الفزع ، وأخذ يصيح : « لا تضرب بترو يا أبتاه ! »

ولم يكن فى الأمر حيــلة ، ذلك ان قلب الأب لم يكن قد من صخر ، فعلق السوط على الجدار ، وساق بترو فى هدوء خارج الكوخ ، وقال له : « لو رأيتك مرة اخرى فى كوخى أو ظهرت تحت النوافذ وحسب لحففت شاربك الأسود ، وانتزعت قنزعتك من جلد رأسك وان كانت من الطول بحيث تلتف مرتين حول أذنيك ، ولا كنت تيرنتى العجوز ان لم أفعل ! »

وما ان أتم قوله حتى لطمه لطمة خفيفة على قفاه ، فانكفأ بترو على وجهه فلم يبصر شيئا ، وكان ذلك عاقبة قبلاته .

وفاض الحزن بحبيبينا المتناجيين ، ثم انطلقت اشاعة فى القرية تقول : ان زائرا جديدا كان يشاهد دائما فى محل كورز وكان هذا الزائر رجلا بولنديا يرفل فى وشى من ذهب ، وله شارب وسيف ومهماز وجيوب ترن رنين الجرس على الكيس يحمله تاراس فندلفتنا فى تجواله حول الكنيسة كل يوم . وانا لنعلم جميعا : لم يزور الناس أبا فتاة كحيل العين ؟ وقد اتفق ذات يوم أن اخـــذت بدوركا اخاها الصغير ايفاس بين ذراعيها وهى غارقة فى دموعهـا وهتفت به قائلة : « ايفـاس ياحبيبى ! انطلق انطـلاق السهم من قوسه ، ياقرة عينى ، وامض الى بترو ، وقل له كل شىء ، قل له : ان مناى ان أهيم فى حب عينيه العسليتين ، وان اقبل وجهه الجميل ، ولكن القدر يأبى على ذلك . لقـد بللت بدموعى الحرى اكثر من منديلين كبيرين ، أما قلبى فيكاد ينفطر من الحزن والأسى! ان أبى هو عدوى وهو يـكرهنى على الزواج من ذلك البولنـدى البغيض ، قل له : انهم يستعدون للزفاف ، ولـكن لن تصـدح الموسيقى فى زفافنا ، وسيرتل القساوسة بدلا من المزماروالقيثارة، ولن أخرج للرقص مع عروسى ، بل سيحملوننى حمـلا ، وسيخيم الظلام على مسكنى المصنوع من خشب الأسفندان ، وسيرتفع فوقه صليب بدلا من المدخنة ! »

ووقف بترو مشدوها بلا حراك كالحجر الأصم ، وهو يستمع الى كلمات بيدوركا يلقيها عليه الطفل الساذج ، وقد شاب نطقه لثغة :

« اما أنا الفتى المسكين التعس فقد كنت أفكر فى الذهاب الى القريم أو تركية لافوز بالذهب فى الحرب ، ثم أعود اليك ياحبيبتى، ولكن هيهات ! لقد أصابتنا عين شريرة حسود وسيكون لى أنا أيضا زفاف ياحبيبتى ، ولكن لن يشهد زفافى أحد من رجال الدين، بل سينعق الغراب الأسحم فوق رأسي بدلا من القسيس ، وسـيكون

السهل الواسع مسكنى ، وغيوم العاصفة الكالحة السقف الذى يظلنى ، ولينتزعن النسر عينى العسليتين ، وتكتسح الأمطارعظامى القوزاقية ثم يجففها الأعصار، ولكن ماهذا الذى اقول ؟ ولمن اشكو؟ وممن ؟ يخيل الى انها ارادة الله ، فان كان قد كتب على الهلاك فانى لا محالة هالك ! » ، ثم مضى الى الحانة لايلوىعلى شيء .

وتولى عمة جدى شيء من الدهشة عندما شاهدت بترو يلم بالحانة فى ساعة يقف فيها المسيحى الصالح بين يدى ربه يؤدى صلاة الفجر ، وحملقت فيه مذهولة حين طلب ابريقا من الفودكا سعته نصف سطل أو يكاد ، وعبثا حاول الفتى المسكينأن يغرق احزانه فى الخمر ، فقدكانت الفودكا تلسع لسانهكحشيشة القريض، وتراءى له انها أمر من الشيبة ، فالقى بالابريق على الأرض .

وانبعث صوت من فوق رأسه يقول : « خل عنك الحزن أيها القوزاقى ! »

فالتفت ــ واذا به يجد باسافريوك ! اف ، يا لغرابة منظره ! لقد كان شعره كالشوك ، وعيناه كعينى النور .

« انى لأعلم ما أنت فى حاجة اليه : انه هــذا ! » ثم ضحك ضحكة شيطانية ، وراح يصلصل بالجيب الجلدى الذى كان يحمله فى حزامه .

وجفل بترو :

وصاح الرجل الآخر وهو يصب القطع الذهبية فى يده المبسوطة كالوعاء : « ها ! انظر كيف تتألق ! وكيف ترن ! وانك لتعلم اننى لا اسألك نظير كومة كاملة من هــذه الشخاشيخ البراقة الا أمرا واحدا »

فصاح بترو : « يا للشيطان ! افصح ، فانى مستعد أن أفعل أى شيء ! » وتصافح الرجلان على ما تعاهدا .

« اعلم يابترو بأنك جئت فى وقتك ، ففى الغد يكون عيد القديس يوحنا المعمدان ، وهــذه هى الليلة الوحيدة فى السنة التى يزهر فيها الديشار ، فاياك أن تضيع هذه الفرصة ، وسأكون فى انتظارك حين ينتصف الليل فى أخدود الدب »

ولا اظن ان شـوق الدجاج الى اللحظة التى تجىء له فيها ربة الدار بالحب كان أشد من شوق بترو لحلول المساء ، وراح الفتى لايمل من النظر ليرى : أيطول الظل الذى تلقيه الشجرة ، ويتورد ضوء الشمس الغاربة بحمرة الخجل ؟ وكان صبره ينفد ثم ينفـد كلما مرت الساعات ، ويالها من ساعات تمر بطيئة ثقيلة ! وكأن النهار الذى خلقه الله قد ضل فلم يعرف له نهاية ينتهى عندها ! ثم غربت الشمس آخر الأمر ، ولم يبق الا خط احمـر يلوح فى جانب من السماء . على ان هذا الخيط ايضا كان آخذا فى الزوال، وقد ازداد الجو برودة فى الحقول ، وراح الضوء يخفت ثم يخفت حتى ادلهم الظلام أخيرا ! ومضى بترو فى طريقه وقد هم قلبـه بأن يقفز من بين ضلوعه ، ثم هبط فى حذر مجتازا الغابة الكثيفة حتى بلغ شقا عميقا فى الأرض كان النـاس يعرفونه باسم أخدود الدب. وكان باسافريوك قد سبقه الى ذلك الموضع ، وأصبح الليل حالك السواد لايرى فيه المرء كفه اذا بسطها أمامه ، واخـذ كل منهما بيد صاحبه ، وشقا طريقهما فى مستنقع موحل ، فعلق الشوك النامى فيه بملابسهما ، وراحا يتعثران فى كل خطوة يخطوانها تقريبا، ثم بلغا آخر الأمر مكانا مستويا ، وتوقف بترو ليرى ماحوله ، ذلك انه لم يكن قد ألم بهذا الموضع من قبـــــل قط ، وتوقف باسافريوك أيضا .

« اترى هذه الروابى الثلاث التى أمامك ؟ لسوف تنمو فوقهـا الأزهار من جميع الألوان والأشكال ، ولـكن لتحفظك الأرواح التى تحل فى هذا المكان من ان تقطف زهرة منها . ومتى ازهر الديشار كنت فى حل من ذلك ، ولكن لا تلتفت وراءك مهما تخيلت من شىء يدور وراءك » .

وأراد بيترو أن يسأله سؤالا ، ولكن هيهات ! لقد اختفى الرجل وصعد الى الروابى الثلاث . فأين هى الأزهار؟ ولكن بيترو لم ير منها شيئا ! فقد كان العشب الغزير قد غشيه السواد فى كل مكان وطغى بغزارة نموه على كل ما عداه ، ثم انبعثت فى السماء ومضة من برق الصيف ورأى بيترو أمامه مهدا كاملا من الزهور ، كلهـا رائع وكلها جديد عليه ، ورأى هناك أيضا ريش الديشار البسيط ،

فتحير فى أمره ووقف مذهولا وذراعاه فى خاصرتيه .

« ولكن ماوجه العجب فى ذلك ؟ ان المرء ليشاهد من هذا القبيل اشياء مرات كل يوم ، وما من عجب فى ذلك ، ومن يدرى لعل الشيطان أراد أن يسخر منى ؟ »

ورأى فجأة زهرة صغيرة تلتفت وتتحرك كأنما دبت فيها الحياة. لقد كانت هذه الزهرة مدهشة حقا ! ذلك انها أخذت تتحرك وتنمو ثم تنمو ثم تضرب الى الأحمرار كالجمرة ، وبزغ على حين غرة نجم صغير ، وانتزع شيء من الأشياء من مكانه ، وتفتحت الزهرة امام عينى بترو ، وسكبت الضوء على ماحولها من الزهور كأنها الشعلة .

وقال بترو بينه وبين نفسه : « لقد حان الوقت ! » ومد يده، الا انه رأى بغتة مئات من الأيدى الخشنة الكثة تمتد من خلفه تجاه الزهرة ، وأخذ شيء يمرق من خلفه روحة وجيئة ، واغمض الفتى عينيه وجذب الساق فاذا بالزهرة فى يده ، ثم ساد السكون، وظهر باسافريوك وقد شحب لونه شحوب الموتى جالسا على جذمور شجرة لايحرك اصبعا ، وعيناه متعلقتان بشيء لايستطيع رؤيته الا هو ، وقد انفتح فمه نصف فتحة ولم يصدر عنه أى صوت ، ولم يتحرك شيء مما حوله . لقد كان الموقف رهيبا ! ثم انبعث آخر الأمر صوت صفير بعث الرعدة فى أوصال بيترو ، وخيل اليه ان العشب كان يتهامس والزهور تتحادث بأصوات رقيقة كأنها رنين الأجراس الفضية ، وتجاوبت الأشجار بزئير الرياح المزمجرة، ودبت الحياة فجأة فى وجه باسافريوك ولمعت عيناه ، ودمدم من بين اسنانه هاتفا : « لقد عدت أيتها الساحرة العجوز ! انظر يابيترو! لتسفرن لك غادة فاتنة ، فافعل كل ماتأمرك به أو تصبح من الهالكين ابد الآبدين ! »

ثم فرق بعصا ذات عقد شجيرة من الحسك ، واذا بكوخ صغير يظهر « كوخ ساحرة كما يقولون فى قصص الجن والعفاريت » وضرب باسافريوك الكوخ بقبضة يده فتداعى منه الجدار، وانطلق كلب أسود كبير لملاقاتهما ، ثم استحال قطا وقفز هاربا وهو يصيح فى وجهيهما.

وقال باسافريوك : « لاتغضبي أيتها الساحرة العجوز ! » ، ومزج عبارته بسباب يسد له الرجل الصالح أذنيه ، وعندئذ انتصبت امرأة عجوز في الموضع الذى كان يقف فيه القط ، وقد علتها الغضون والتجاعيد كأنها التفاح المطهو ، وانحنى ظهرها حتى تلاقى أنفها وذقنها ككسارة البندق .

وقال بيترو بينه وبين نفسه : « يا للجمال الفاتن ! » ، وسرت في جسده رعدة .

واختطفت الساحرة الزهرة من يده ، وقضت وقتا طويلا تتمتم عليها وتنضحها بماء من نوع خاص وكان الشرر يتطاير من فمها وقد علت شفتيها شيات من الزبد ، وقالت وهى ترد اليه الزهرة : « الق بها » ، فألقاها بيترو ، ومن عجب انها لم تقع على الأرض لتوها بل ظلت معلقة في الفضاء وقتا طويلا كأنها كرة من نار تضيء في الظلام ، ثم اخذت تطفو في الهواء كالقارب ثم راحت تهبط في بطء ، ثم سقطت بعيدا جدا حتى بدت كالنجم الصغير لايزيدحجمها عن بذرة الخشخاش ، وانبعثت العجوز تخرخر في صوت خاوى النبرات وهى تنشج نشيجا : « هاك! » ، ومضى باسافريوك يقول وهو يناوله مجرفا : « احفر هنا يابيترو ، تر من الذهب ما لم تحلم به انت أو كورز ! »

وتفل بيترو في يديه ، واختطف المجرف ودفعه في الأرض بقدمه واخرج التراب ثم ملأ مجرفا آخر بالتراب .. راتبعه ثالثا .. ورابعا ، ثم ارتطم المجرف بشيء صلب ، وأبى أن يوغل في الأرض أكثر مما أوغل ، واستطاع بيترو أن يبصر بعيني رأسه صندوقا صغيرا مطوقا بالحديد ، وحاول أن يمسكه ، ولكن الصندوق غاص في الأرض ثم غاص ، ورنت خلفه ضحكة كفحيح الأفاعي أو هي أقرب.

وهتفت به الساحرة : « كلا ! لن ترى الذهب حتى تريق دم انسي ! » ، وجاءت له بطفل في السادسة أو نحوها ملفوفا بغطاء من النسيج الأبيض ، وأخذت تشير اليه بأن يفصل رأسه عن جسده ، وعقدت الدهشة لسان بيترو ، يا للهراء ! أيقتل انسيا ، بل طفلا بريئا ، من غير جريرة ؟ ونزع في غضب غطاء النسيج عن الطفل ، فماذا رأى ؟ رأى أمامه ايفاس ! وكان الطفل المسكين قد

شبك يديه على صدره ، ونكس راسه ، وانقض بيترو كالمجنون على الساحرة والسكين فى يده ورفع يده ليضرب

وصاح باسافريوك فى صوت كالرعد : « واين وعدك الذى وعدت اكراما للفتاة ؟ » ونفذت كلماته فى قلب بيترو كالرصاصة ودقت الساحرة الأرض بقدمها ، فانبثق من الأرض لهب ازرق أضاء جوفها نفسه حتى بدا كأنما صنع من البلور ، وتكشف للأنظار كل شيء تحت سطح الأرض ، وظهرت قطع الذهب والأحجار الكريمة فى صناديق وقدور مكومة أكواما فى الموضع الذى كانوا يقفون فوقه ، وتوقدت عينا بيترو واصابه دوار ، وامسك بالسكين كمن أصابته لوثة ، وانبثق الدم الطاهر امام عينيه ، وجلجلت من حوله ضحكات شيطانية ، واخذت وحوش مخيفة تقفز قطعانا امامه ، وقبضت الساحرة بيديها على الجثة المقطوعة الرأس، وراحت ترتوى من الدماء كأنها الذئب ، ودار راس بيترو ، وبذل جهد اليائس حتى استطاع أن يسلم ساقيه للريح ، وغشى كل شيء من حوله ضوء احمر ، وبدت الأشجار وهى غارقة فى الدماء كأنها تشتعل وتئن ، وكانت السماء الحمراء المتوهجة تنتفض وترتجف ، وومضت أمام عينيه ومضات من نار كأنها البرق ، وجرى يلهث لهثا شديدا حتى بلغ كوخه ثم ارتمى على الأرض فاقد الوعى ، واستغرق فى نوم شبيه بالموت .

ونام بيترو يومين وليلتين دون ان يستيقظ ، وأفاق من غشيته فى اليوم الثالث ، وانبعث يحملق فى اركان الكوخ ، وعبثا حاول ان يذكر ماوقع له ، فقد كانت ذاكرته كجيب الشيخ البخيل يتعذر عليك أن تخرج منها فلسا ، ثم تمطى قليلا فسمع صوت شيء يخشخش عند قدميه. لقد كان ثمة كيسان من الذهب عند موطىء قدميه ، وتذكر عندئذ فحسب ، أجل تذكر كما لو كان فى حلم ، انه كان يبحث عن كنز، وانه كان وحيدا مستطار اللب فى الغابة ، ولكنه لم يستطع أن يتذكر الثمن الذى دفعه لقاء هذا الكنز ولا الوسيلة التى توسل بها للحصول عليه .

ورأى كورز الكيسين فلان قلبه ، واخذ يثنى على بيترو بكيت وكيت، مبديا انه لايستطيع ان يفيه حقه : « أو لم يك مشفوقا

به دائما ؟ أو لم يكن منى فى منزلة الابن؟» ، ومضى الثعلب العجوز مشتطا فى ثنائه حتى تأثر بيترو وطفرت الدموع من عينيه ، وانطلقت بيدوركا تحدثه كيف خطف بعض النور الذين مروا بهم ايفاس ، ولكن بيترو لم يستطع ان يذكر وجه الغلام نفسه ، ذلك ان تلك الفعال الشيطانية الملعونة كانت قد اذهلته واطارت منه اللب .

ولم يك ثمة داع للتمهل والتأخير ، فقد ردوا العروس البولندى خائبا مقطوع الرجاء ، واخذوا يعدون العدة للزفاف وخبزوا كعك الزفاف وطرزوا المناشف والمناديل واخرجوا برميلا من الفودكا ، واجلسوا الشاربين الى المائدة وقطعوا كعكة الزفاف ، وعزفوا على المزمار والقيثارة و « البندورة » (١) ودقوا الصنوج ، ثم راحوا يلهون ويمرحون .

ولا وجه لمقارنة حفلات الزفاف اليوم بما كانت عليه فى هاتيك الأيام التى الفت عمة جدى أن تحدثنى عنها ، ويالها من ولائم ! لقد كانت تقص على كيف كانت الفتيات يرقصن مطوفات بالغرفة فى رشاقة الطواويس ، ويحففن بك طاويات الأرض كالزوبعة ، وقد ارتدين لباسا للرأس انيقا من شرائط صفر وزرق وفى لون الورد وعصبنه بضفيرة ذهبية ، وقمصانا جميلة طرزت كل طية من طياتها بالحرير الأحمر وزينت بالأزهار الفضية الصغيرة ، ووضعن فى اقدامهن أحذية مراكشية من ذوات الكعوب العالية والنعال الملبسة بالحديد ، وكيف كانت الزوجات الشابات يرتدين غطاء للراس يشبه القارب ، صنعت قمته كلها من نسيج حريرى موشى بالذهب وقد شق من الخلف شقا صغيرا تبص من تحته القبعة الذهبية ، وحلى هذا الغطاء بقرنين صغيرين من ارقى أنواع الفراء الأستراخانى الأسود ، أحدهما فى مقدم الراس والآخر فى مؤخره ، كما ارتدين سترات زرقا من احسن انواع الحرير لها أهداب حمر ، وقد وضعن أذرعهن فى خواصرهن فى اباء واعتزاز بالنفس ، ورحن يخرجن الواحدة فى اثر الأخرى من الحلقة ليرقصن رقصة «الهوباك» فى ايقاع رتيب منتظم ، وكيف كان الفتيان بقبعاتهم القوزاقية الطويلة ، وستراتهم البديعة النسج ، وأحزمتهم الموشاة بالفضة واسنانهم مطبقة على غلايينهم

(١) البندورة آلة موسيقية روسية .

يزاملون هؤلاء الزوجات الشابات فى الرقص ويقفزون كل أنواع القفز. وشاهد كورز الفتيان فلم يسعه الا أن يستعيد شبابه ، وراح يرقص ويغنى والبندورة فى يديه والغليون فى فمه ، واخذ في الوقت نفسه يثبت كأسا على راسه . الا ما اغرب ما يفكر فيه القوم عندما يأخذون فى اللهو ! انهم يبدءون مثلا بوضع القناعات على وجوههم، يا الهى ! انهم ليبدون عندئذ كالوحوش سواء بسواء ! آه ! لقد كان الأمر فى تلك الأيام يختلف كل الاختلاف عما يأخذ به الناس أنفسهم الآن من لباس فى حفلات الزفاف التى تقام اليوم ، فماذا يفعلون اليوم ؟ ان كل مايفعلون هو أن يلبسوا ملابس عجيبة تحاكى ملابس النور او المسكوفيات ، أما فى الأيام الخالية فقد كان القوم ما بين يهودي وشيطان يبدءون بأن يقبل الواحد منهم الآخر ثم يشرع فى شد قنزعة رأسه ، تالله أن المرء كان يضحك حتى ينشق جنباه من الضحك . وكان القوم يرتدون الملابس التركية والترية تتألق جميعها تألق النار ، فاذا شرعوا فى العبث واداء الاعيبهم لم يك ثمة حد لما يفعلون ! وقد وقعت لعمة جدى حادثة مضحكة وكانت قد حضرت ذلك الزفاف ، ترتدى ثوبا تتريا فضفاضا ، وتقدم الخمر الى الجمع من قدح فى يدها ، ذلك ان الشيطان أوعز الى شخص من الحاضرين بأن يرش الفودكا عليها من الخلف ، وكان بين الحاضرين شخص آخر لا يقل فيما يظهر مهارة من ذلك الشخص ، فقد أشعل فى الوقت نفسه عود ثقاب واوقد فيها النار ، وتأجج اللهب ، وتملك الرعب عمتى المسكينة وانبعثت تخلع ملابسها جميعا امام الجمع كلهم ، وارتفعت الضوضاء وعلا الضحك وانطلق الضجيج عنيفا صاخبا حتى اصبح المكان كالسوق ! والحق ان الشيوخ لم يبق فى ذاكرتهم زفاف بلغ فيه المرح ما بلغه فى ذلك الزفاف .

وبدأت بيدوركا وبيترو يعيشان عيشة الزوج والزوجة من افاضل القوم ، وتيسر لهما من كل شيء نعيم وافر ، وكان كل ما عندهما جديدا كل الجدة ، ولكن أهل التقى والصلاح كانوا يهزون رءوسهم قليلا وهم يراقبون حياتهما ، وراحوا يقولون جميعا كأنهم رجل واحد : «لاخير فيما يأتى به الشيطان ، ترى من أين له بهذه الثروة ان لم تكن قد اتته من ذلك الذى يضل المسيحيين الصالحين

بفوايته ؟ أجل من أين له هذا الكوم من الذهب ؟ ولم اختف باسافريوك فى اليوم الذى أثرى فيه بيترو ؟ »

ولعلك ترى ان الناس تتقول الأقاويل! ولكن الحق انه لم ينقض على هذه الحال شهر حتى كان يتعذر على أى انسان معرفة بيترو، ولم يكن يعلم الا الله ماذا حدث له ، فقد كان يجلس ساكتا لايأتى بحركة ولا ينطق بكلمة لأى مخلوق ، كان دائما مستغرقا فى تأملاته ، يحاول فيما يظهر ان يتذكر شيئا ، فاذا أفلحت بيدوركا فى حمله على الكلام بدا له انه نسى ما يشغل باله ، ثم يواصل معها الحديث ، بل قد يظهر عليه المرح ، فاذا وقع نظره مصادفة على الكيسين قال : « انتظرى انتظرى ، لقد نسيت ! » ثم يعود الى الاستغراق فى تأملاته محاولا أن يتذكر شيئا . وكان يخلد الى السكون وقتا طويلا، ثم يبدو عليه انه على وشك أن يتذكر كل شىء .. على ان هذا الخاطر لايلبث أن يختفى . وخيل اليه مرة انه كان جالسا فى حانة ثم جاءوا بالفودكا ، فألهبت جوفه ، ذلك انها كانت رديئة ، وأقبل عليه شخص وربت كتفه ــ ثم غم عليه بعد ذلك كل شىء كأنما غشيته ضبابة ، وكان العرق يتصبب على وجهه فيعود الى الجلوس وقد نال منه التعب والاجهاد حتى أضناه .

ولكن هل تركت بيدوركا شيئا فى وسعها ولم تفعله من أجله ؟ لقد فزعت الى الدجالين تلتمس عندهم المشورة ، وصبت الشمع فى الماء ، وأحرقت قطعة من القنب (١) على ان ذلك كله لم يجده نفعا. وولى الصيف ، وكان كثير من القوزاق قد فرغوا من حصد محصولهم وجمعه ، وخرج للقتال أكثرهم اقداما واستهتارا بالحياة ، وكانت أسراب البط لاتزال كثيرة فى مستنقعاتها ، ولم يكن بينها صعوة واحدة ، واصطبغت السهوب باللون الأحمر، وانتشرت فى أرجاء الحقول

---

(١) اذا تملك الرعب احدا وأراد القوم أن يعرفوا السبب فى ذلك صبوا الشمع أو القصدير الذائب فى الماء فيتخذ صورة ذلك الشىء الذى أثار الرعب فى قلبه ، ويزول عنه هذا الرعب . وكان القوم يحرقون القنب شفاء للمريض أو ابراء لداء المعدة فتشعل النار فى قطعة من القنب ، وتلقى فى كوز يقلب على طاس من الماء يوضع على معدة المريض، ثم يرددون تعويذة ويعطونه ملء ملعقة من الماء يشربها .

المؤلف

أكداس من القمح تحاكى قلانس القوزاق ، وكنت تصادف فى الطرق العربات محملة بحزم الحطب وكتل الخشب ، وازدادت الأرض رسوخا وصلابة فى مواضع ، والم بها الصقيع فى مواضع ، وبدا الجليد يتساقط وكسا غصون الأشجار حلته ، فبدت كفراء الأرنب البرى ، وانطلق الدقتاش « وهو العصفور الأحمر الصدر » فى يوم شديد الصقيع مفتشا عن البذور فى اكوام الجليد يتبختر كأنه سيد بولندى انيق ، وكان الأطفال يضربون دواماتهم الخشبية على الجليد بعصى غليظة ، على حين جلس آباؤهم ساكنين على أريكة الموقد يخرجون من ديارهم بين الفينة والفينة قابضين بأسنانهم على غلايينهم المشتعلة ليلعنوا صراحة ذلك الصقيع المسيحى الصالح ! أو يستنشقوا الهواء ويدرسوا الحنطة المخزونة فى غرفة دارهم الخارجية .

وبدا الجليد يذوب آخر الأمر ، وحطمت الحربة بذيلها الجليد كما يقولون !

ولكن بيترو ظل على حاله، بل ازداد بمرور الزمن كآبة على كآبة ، فكان يجلس فى وسط الكوخ كأنه تسمر فى مكانه وكيسا الذهب عند موطىء قدميه ، ويتحاشى الاختلاط بالناس وقد ترك شعره ينمو وبدات ملامحه تتغير تغيرا بشعا ، ولم يك يفكر الا فى شىء واحد. لقد ظل يحاول ان يتذكر شيئا ، وأقلقه اشد القلق وأغضبه أعظم الغضب عجزه عن تذكره ، وكثيرا ما كان يهب واقفامن مقعده جامحا مهتاجا ، يلوح بذراعيه ويحملق فى شىء كأنما يريد ان يمسكه، وكانت شفتاه تتحركان كمن يريد ان ينطق بكلمة طال عليه نسيانها — ثم يظل بعد ذلك ساكنا بلا حراك . كان قد غلبه الغضب والهياج على أمره وكان يقرض يديه ويعضهما كمن به جنة ، ويمزق شعر راسه حفانا من شدة الضيق والكرب حتى يعود الى الهدوء مرة اخرى ويبدو كأنه فى لجة النسيان ، ثم يبدأ من جديد فيعاود التذكر، ويرجع الى شأنه ، فيستبد به الهياج والعذاب . لقد كان ذلك نقمة أنزلتها به السماء !

أما بيدوركا فلم يعد فى حياتها مايستحق ان تعيش من أجله ، ذلك انها كانت فى اول الأمر تخاف ان تظل وحيدة فى الكوخ ، ثم الفت المسكينة ما رماها به القدر من شقاء وتعس ولكن ما من أحد

كان يعرف انها هى بيدوركا المعهودة ، فقد غاض الدم فى وجنتيها ، واختفت الابتسامة من شفتيها ، كانت تذوب أسى ويضمحل جسمها ويذوى ، وكانت تبكى بكاء يطفىء ضياء العين ويذهب بنورها. وأشفق عليها مرة انسان فنصحها بأن تمضى الى الساحرة المقيمة فى أخدود الدب ، التى اشتهر عنها انها تشفى جميع الأمراض فى هذا العالم .
واستقر رأيها على ان تجرب هذه الوسيلة الأخيرة ، واقنعت الساحرة شيئا فشيئا بأن تأتى معها الى الدار ، وكان ذلك فى ليلة عيد القديس يوحنا بعد ان غربت الشمس ، وكان بيترو مستلقيا على الأريكة وقد استغرق فى تأملاته فلم ير الزائرة وهى تدخل ، ولكنه أخذ يهم بالجلوس رويدا رويدا وينظر اليها ، ثم انتفض فجأة كأنه على المشنقة ، ووقف شعر رأسه ثم انفجر ضاحكا ضحكة ذهبت بلب بيدوركا ، وصاح فى فرح مخيف : « تذكرت ! تذكرت ! » وتناول فأسا بسرعة وألقى بها بكل قوته على العجوز ، ونفذت الفأس فى الباب المصنوع من السنديان بوصتين ، واختفت العجوز، واذا بطفل فى السابعة أو نحوها يرتدى قميصا أبيض ويغطى رأسه بغطاء ، يقف فى وسط الكوخ ، وانحسر النقاب عن رأسه فهتفت بيدوركا قائلة : « ايفاس ! » ثم هرعت اليه ، الا ان الشبح كان ملطخا بالدم من قمة رأسه الى اخمص قدمه ، وانبعث منه ضوء أحمر غمر انحاء الكوخ جميعا ، وجرت بيدوركا الى الغرفة الخارجية وقد ملأ الرعب قلبها، ولكنها ثابت الى رشدها وتاقت نفسها الى مساعدة أخيها ، ولكن هيهات ! فقد انصفق الباب من خلفها حتى تعذر عليها فتحه ، وجاء الجيران ركضا وراحوا يقرعون الباب ثم اقتحموه ، ولكنهم لم يجدوا داخل الكوخ أحدا ، فقد امتلأت أرجاؤه جميعا بالدخان ، وانما كان يقوم فى وسطه حيث كان يقف بيترو ، كوم من الرماد لايزال يتصاعد الدخان منه ، واندفع الجيران صوب الكيسين فوجدوهما مليئين بكسر من الشقف بدلا من قطع الذهب ، وأوقعت هذه المعجزة فى قلوب القوزاق من الرعب والفزع ما جعلهم يقفون كأنهم تسمروا فى الأرض ، وقد انفغرت افواههم وجحظت عيونهم ، ولم يجدوا فى انفسهم من الشجاعة ما يسمح لهم بتحريك رمش واحد من رموشهم .

ولست اذكر ماحدث بعد ذلك ، فقد نذرت بيدوركا ان تخرج فى رحلة للحج ، فجمعت كل ماخلفه لها أبوها من متاع واختفت بعد أيام قليلة من القرية ، ولم يدر احد اين ذهبت ، الا ان بعض الثرثارات من العجائز تفضلن فأعلن انها لحقت ببيترو ، على ان قوزاقيا قادما من كييف زعم انه رأى فى الدير راهبة ذوىجسمها ، ونحل حتى بدت كالشبح ، وانقطعت للصلاة انقطاعا ، وقد عرف القرويون مما وصفها به ان هذه الراهبة هى بيدوركا ، وانبأهم الرجل أيضا بانه لم يسمعها احد قط تنطق بحرف ، وانها جاءت الى الدير سعيا على قدميها ، وحملت معها رصيعة لأيقونة السيدة العذراء ضمت من الجواهر المتلألئة ما يبهر كل عين تقع عليها .

ولكن اسمحوا لى بأن أقول لكم ان القصة لم تنته عند هذا الحد، فقد عاد باسافريوك الى الظهور فى اليوم الذى قتل فيه الشيطان بيترو ، ولكن الناس جميعا كانوا يهربون منه ، فقد تبينوا الآن أى صنف من المخلوقات هو ! اذ ما من مخلوق يتنكر فى صورة الانسان ليستخرج من باطن الأرض كنزا دفينا الا الشيطان نفسه . على ان الأيدى الدنسة لم تكن لتمس الكنز، فعمد الشيطان الى اغراء الشبان المستهترين بمعاونته ، وفى السنة نفسها هجر الناس جميعا أكواخهم القديمة وانتقلوا الى قرية كبيرة تجاور قريتهم ! ولكنهم لم يسلموا فى هذه القرية نفسها من شر باسافريوك الملعون ، وقد جرت عمة جدى على القول بأنه غضب عليها خاصة لأنها هجرت حانتها القديمة التى كانت فى طريق ابوشنيا ، وبذل قصارى جهده ليشتريها منها .

واجتمع شيوخ القرية ذات يوم فى حانتها ، وراحوا يتداولون كل على قدر عقله ، كما يقول المثل ، وقد جلسوا حول المائدة وكان يتوسطها كبش كامل مشوى ، وانى لأجانب الحق لو قلت انه صغير. أجل كانوا يتداولون فى شتى الموضوعات ، وفى المعجزات والوقائع الغريبة ، وتراءى لهم فجأة ان الكبش يرفع راسه وتتألق عيناه السوداوان الماكرتان وتدب فيهما الحياة ، ولو ان واحدا منهم فحسب هو الذى تراءى له ذلك لهان الأمر بطبيعة الحال ، ولكنهم جميعا شاهدوا هذا الذى حدث دفعة واحدة ــ ونبت الكبش فجأة شارب خشن أسود اخذ يفتله فى وجه الجماعة فتلا له مفزاه ، ولم

يلبثوا جميعا ان تبينوا فى رأس الكبش وجه باسافريوك ، بل خيل الى عمة جدى انه لم تمض لحظة حتى يبادر بطلب الفودكا ، وتناول الشيوخ الفضلاء قبعاتهم وهرعوا الى بيوتهم .

وحدث فى يوم آخر ان سادن الكنيسة الذى ألف ان يخلو الى كأس الأسرة نصف ساعة يقضيها في هدوء وسكون ، لم يكد يفرغ ما فى الكأس مرتين حتى رآها تنحنى له فصاح قائلا : « الا فليذهب بها الشيطان ! » ، واخذ يرسم اشارة الصليب . ووقع فى الوقت نفسه حادث غريب لشريكة حياته ، ذلك انها ما أن أشرفت على ان تنتهى من خلط الدقيق فى قصعة كبيرة حتى قفزت القصعة فجأة وطارت بعيدا عنها ، فصاحت الزوجة : « قفى ! قفى ! » ، ولكن لا حياة لمن تنادي . فقد وضعت القصعة ذراعيها فى خاصرتيها ، وراحت ترقص فى وقار ورزانة فى أرجاء الكوخ جميعا . وقد يثير فيكم ذلك من الضحك مايثير ، ولكن الأمر لم يكن يدعو الى الضحك عند جدودنا ، وقد انطلق الأب افناسى فى القرية يرش ارجاءها جميعا بالماء المقدس ، ويطرد الشيطان بالرشاشة من كل طريق ، الا ان عمة جدى ظلت تشكو زمنا طويلا قائلة : ان المساء لم يكن ليحل حتى تسمع شخصا يقرع على السقف ويخربش فى الجدار .

ولكن رويدكم ! فقد يذهب بكم الظن الى أن الهدوء والطمأنينة قد شملا فى الوقت الحاضر ذلك المكان الذى تقوم فيه قريتنا ، على أنكم تعلمون أن الأحوال ظلت على ما هي عليه الى عهد ليس ببعيد ، عهد يذكره أبى ، بل اذكره أنا حقا ، فقدكان الرجل الصالح لايستطيع ان يمر بالحانة الخربة التىأصلحها أهل الدنس بعد ذلك بأمدطويل على حسابهم ، اذ كان الدخان يتصاعد سحائب من المدخنة القذرة ، ويضرب فى السماء حتى كانت قبعة المرء خليقة بأن تسقط عن رأسه وهو يتطلع اليه ، وينشر الجمر فى أرجاء السهب . وقد ألف الشيطان – وقانا الله ذكره لعنة الله عليه – أن ينتحب في وكره نحيبا محزنا يلقىالرعب فى قلوب الغربان المرتاعة ، فتفزع منالغابة المجاورة أسرابا أسرابا ، وتنتشر فى السماء مطلقة صرخات آبدة مستوحشة .

ليلة من ليالى شهر مايو
أو العذراء الغريقة



ليلة من ليالي شهر مايو

أو العذراء الغريقة

لا يعلم هذا الأمر الا الشيطان وحده ! فما أن يشرع المسيحيون فى عمل من الأعمال حتى يرهقوا انفسهم ثم يرهقوها كانهم كلاب تطارد أرنبا برية ، وتذهب جهودهم جميعا هباء ، فاذا ما تدخل الشيطان لم يقتض ذلك منه الا انتفاضة من ذيله !

- ١ -

حنة

انسابت اغنية فى طرقات القرية انسياب النهر مجلجلة تتردد وتتردد ، وكان ذلك فى الساعة التى ينفض فيها الفتيان والفتيات عن كاهلهم ما ينوء به من مشاغل اليوم ومتاعبه ، ويجتمعون فى نور المساء الصافى المورد يتدفق المرح والبهجة من قلوبهم انغاما لا تخلو من رنين الحزن والأسى . وكان المساء الحانى يحتضن هائما فى أحلامه السماء الزرقاء الداكنة ، فيضفى على كل شىء جوا من الغموض

والسمو . وكان الغسق قد حل ولكن الغناء لم يكف ، وانفلت ليفكو ، الشاب القوزاقى وابن شيخ القـــرية ، من زمرة المنشدين وفى يده بندورة ، وكان يرتدى قبعة من الاستراخان ، واجتاز الطريق وهو يضرب على أوتار البندورة ويرقص على نغماتها ، ثم وقف آخر الأمر فى هدوء امام باب كوخ تحيط به أشجار الكرز القصيرة العود . ترى من كان صاحب الكوخ ؟ ولمن كان هذا الباب ؟ وساد الصمت لحظات ثم انطلق ليفكو يعزف ويغنى :

ها هى ذى الشمس قد انحدرت ، وأوشك المساء ان يحل فاخرجى الى يا حبة قلبى !

وفرغ القوزاقى من اغنيته وقال : « ايه يا فتاتى الجميلة المشرقة العين ، يخيل الى انها مستغرقة فى النوم » ثم اقترب من النافذة وراح يهتف : « حنة! حنة ! أنائمة انت أم تراك لا تريدين الخروج الى؟ أظن انك تخافين أن يرانا أحد ، أم لعلك لاتريدين أن تطلى بوجهك الصغير الفاتن فى هذا البرد ! لا تراعى ، فالمكان خال ، والمساء دافىء، ولئن الم بنا أحد غطيتك بسترتى ولففت حزامى حولك ووقيتك بذراعى ، فلا يرانا أحد ، واذا انبعثت فى الجو لفحة من البرد ضممتك الى قلبى أكثر واكثر، واشعت الدفء فى جسمك بقبلاتى ، ووضعت قبعتى على قدميك الصغيرتين البيضاوين ، يا بهجة قلبى ، وحبة فؤادى ، وقرة عينى ! أطلى على لحظة ، وان شئت فحسبى أن تمدى يدك البيضاء الصغيرة من النافذة » ، ورفع صوته وهتف فى لهجة تنم عن خجله من انه اذل نفسه لحظة : « كلا ! لست نائمة أيتها الغادة الأبية المتعالية ، وانما يسرك أن تسخرى منى، فوداعا »

ودار على عقبيه ، وسوى قبعته على راسه ، ومضى رافع الراس ، يضرب أوتار البندورة فى رقة وعذوبة ، واذا بالمقبض الخشبى يدور وينفتح الباب فى صرير ، وتطل فتاة فى ربيعها السابع عشر وقد شاع

فى وجهها خفر وحياء وطواها الغسق فى غلالته ، واجتازت الفتــاة عتبة الباب دون أن تترك المقبض ، وتألقت عيناها المشرقتان فى الضوء الخافت كالنجوم ، ولمعت قلادتها المصنوعة من المرجان الأحمر ، بل ان حمرة الخجل الرقيقة التى صبغت وجنتيها لم تخف على الفتى الحديد البصر .

وقالت له الفتاة فى صوت خفيض : « ما اقل صبرك ! وفيم هذا الغضب الذى اعتراك ؟ ولم اخترت هذه الساعة ؟ ان جموعا من الناس يسيرون فى الطريق روحة وجيئة ، وانى لأنتفض اذا . . . » .

وجلس الفتى معهما على باب الكوخ ، وراح يطوقها بذراعيه ، وألقى ألى جانبه بندورته التى كانت معلقة فى عنقه بسير طويل من الجلد ، ثم قال : « اواه ! لا ترتعدى يا ريحــانة قلبى ! والتصقى به أكثر وأكثر ! فانك لتعلمين مقدار ما أحس به من عذاب اذا بعدت عنك ساعة من زمان » .

وقالت الفتاة وهى ترمقه بنظرات المستغرق المتأمل : « أتدرى ما أفكر فيه ؟ يخيل الى ان شيئا لا ينفك يوسوس فى قلبى بأننا لن نلتقى كثيرا ، ذلك أن القوم هنا ليسوا من خيار الناس ، فالفتيات جميعا ينظرن الى والحسد يأكل قلوبهن ، وكذلك الفتيان ، بل انى لألاحظ ان أمى قد جرت أخيرا على التشدد فى مراقبتى ، ولا انكر عليك ان الحيـــاة كانت تطيب لى أكثر عندما كنت أقيم بعيدا عن هذه الديار » .

وعلت وجهها مسحة من الحزن وهى تنطق بهذه الكلمات الأخيرة .

« هل تقضين شهرين فى هذه الديار فحسب ثم يدركك السأم ؟ لعلك سئمتنى أنا أيضا ! » .

فأجابته وهى تبتسم : « كلا ، لم اسأمك ، بل انى لأحبك أيها القوزاقى الكحيل العين ! أجل احب فيك عينيك العسليتين ، ويخيل

الى حين ترنو الى أن السرور يغمر قلبى فيفيض بالبشر والسعادة ! واحب فيك انك تفتل شاربك الأســـود على نحو يبعث فى النفس البهجة والسرور ! واحب فيك انك تسير فى الطرقات مغنيا وعازفا على البندورة ، ثم ان الاستماع اليك متعة » .

فصاح الفتى وهو يقبلها ويضمها الى صدره : « آه يا حبيبتى حنة ! » .

« امسك ! وحسبك يا ليفكو ! وقل لى أولا : هل انبأت اباك ؟ .

فقال وكأنه يستيقظ من نوم كان مستغرقا فيه : « أخبره بماذا ؟ بأننى اريد ان اتزوج وانك ستكونين زوجتى ؟ أجل ، لقد انبأته » ، على أن عبارته الأخيرة قد شابها الحزن وهى تخرج من بين شفتيه .

« وبعــــد ؟ » .

وما حيلتى معه ؟ لقد تظاهر هذا الوغد العجوز بالصم كشـــأنه دائما ، واشاح بسمعه عنى ، ثم راح ينهرنى على تسكعى ، والله يعلم اين ، ويلومنى على الانطـــلاق فى الطرقات انا وخلانى نمرح ونعبث ، ولكن لا تحزنى ايتها الحبيبة حنة ! فانى اعدك وعد قوزاقى بأن اتحايل عليه » .

« حسبك أن تنطق بالكلمة يا ليفكو فيكون لك كل ما تريد ، وانى لأتبين ذلك فى نفسى ، فقد يبدو لى فى بعض الاحيان الا أطيعك ، ولكنك ما ان تنطق بكلمة واحـــدة حتى أجدنى مسوقة الى فعل ما تريد » ، ثم مضت تقول وهى تلقى براسها على كتفه وتلتفت متطلعة الى السماء الأوكرانية العامرة بالدفء تتجلى بزرقتها الداكنة من خلال غصون أشجار الكرز المورقة التى انتصبت امامهما : « انظر! انظر ! انظر ، هنالك تجد على البعد النجوم تتلألأ ــ واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، خمسة ، انهـــا ملائكة الخالق تفتح نوافذ مساكنها المتألقة فى السماء وتطل علينا ، اليس كذلك يا ليفكو ؟ انهـــا ترمق

أرضنا بنظراتها أليس كذلك ؟ لو أن للناس أجنحة كالطيور لارتفعوا اليها فى عليائها ، آه من هذا الأمر الرهيب ! أليس هنا شجرة سنديان واحدة ترتفع الى عنان السماء ؟ ولكنهم يقولون ان ثمة شجرة فى بلاد نائية تبلغ عنان السماء ، وسينزل الله عليها الى الأرض فى ليلة عيد الفصح » .

« كلا يا حنة ، فان لله سلما يصل بلا عوج من السماء الى الأرض ، وينصبه رؤساء الملائكة الأبرار قبل احد الفصح ، وما أن يضع الله قدمه على الدرج الأول منه حتى تخر جميع الارواح الشريرة منكبة على وجوهها وتهوى زمرا فى قرار الجحيم ، ولذلك لا تجدين روحا شريرة واحدة على ظهر الأرض فى عيد قيامة المسيح » .

ومضت حنة تقول : « ما أعذب خرير الماء يتناغى كالطفل يرقد فى المهد ! » وراحت تشير الى البركة وهى تبدو فى اطارها الداكن من شجر الاسفندان والصفصاف النائح تحنو عليها أغصانه حتى تغوص فى مائها ، وتضم السماء النائية المظلمة كالشيخ الواهن فى حضنها البارد ، وتمطر بقبلاتها المقرورة الكواكب تتألق فى ذلك الخضم الدافىء من هواء الليل كأنها كانت تحس بمقدم ملكة الليل الزاهرة ، وهجع فوق التل بجوار الأجمة بيت عتيق من الخشب أغلقت مصاريع نوافذه ، وغطى الطحلب والعشب سقفه ، ونشرت أشجار التفاح غصونها أمام النوافذ . وكانت الأجمة تلف البيت بظلالها وتلقى عليه شبحا من الظلام تفزع له القلوب ، وقام فى طرف الأجمة دغل من اشجار البندق ينحدر حتى يصل الى البركة .

وقالت حنة وهى لا ترفع عينيها عن البيت : « انى لأذكر كما لو كنت فى حلم أن الناس منذ أمد بعيد ، بعيد جدا ، حين كنت أقيم

مع أمى ، كانوا يروون عن هذا البيت قصة تلقى الفزع فى القلوب ، ولا شك أنك تعرف تلك القصة يا ليفكو ، أفلا تقصها على ؟ » .

« دعيك من تلك القصة يا فاتنتى ، فان العجائز والحمقى يروون من القصص اشكالا وانواعا ، ولن ينالك منها الا بلبلة الخاطر والفزع والنوم المضطرب » .

فقالت وهى تلصق وجهها بخده وتطوقه بذراعها : « بل قصها على ! قصها على أيها الحبيب الكحيل العين ! ما بالك تحجم ؟ اذن فأنت لا تحبنى ، وانما تحب فتاة أخرى ، لن ينتابنى الخوف ، وسأستغرق فى النوم بالليل ، ولن يرور الكرى اجفانى ان لم تقصها على ، بل سيستبد بى القلق . واغرق فى لجة من التفكير ، فبالله قصها على يا ليفكو ! » .

« يبدو ان القوم قد أصابوا بقولهم ان الفتيــات مصابات بداء الفضول الذى لا يكف عن الالحاح عليهن ، ليكن ما تريدين وأعيرينى سمعك » :

« حدث منذ أمد بعيد ياحبة القلب ان كان ضابط من القوزاق قد الف العيش فى ذلك البيت ، وكانت له ابنــة ، غادة حسناء ، ناصعة البياض كالثلج بل فى بياض وجهك الصغير . وكانت زوجته قد توفيت منذ وقت طويل ، فقر رايه على أن يتزوج مرة اخرى ، فسألته ابنته « أبتاه اوتظلنى برعايتك كعهدك حين تتخذ لك زوجة اخرى؟» فأجابها ابوها بقوله : « اجل ، وانى لفاعل يا ابنتى ، وسأضمك الى قلبى فى حنان يفوق ما عهدت من قبل ! اجل سيكون هذا شأنى ، وسأعطيك أقراطا وقلائد اشد تألقا من كل ما نلت منى من قبل ! » .

« وحمل الأب زوجته الشابة الى بيتها الجديد ، وكانت بهية

الطلعة بيضاء متوردة ، ولم يكن من هذه الزوجة الا أن حدجت ابنة زوجها بنظرة مخيفة حتى ان الفتاة صرخت عندما راتها . ولم تقل لها زوجة أبيها العاتية كلمة واحدة اليوم بطوله ، وجن الليل ، ومضى الأب مع زوجته الشابة الى غرفة نومه ، واغلقت الفتاة الحسناء باب غرفتها الصغيرة عليها ، وشـــعرت بالحزن يغشى فؤادها ، فراحت تبكى ، ورفعت راسها فرات قطة سوداء بشعة الخلقة تتسلل اليها ، وكانت فروتها تلمع وبراثنها الفولاذية تخدش الأرض ؛ فقفزت الفتاة وقد استبد بها الفزع الى اريكة ، ولكن القطة لحقت بها ، فارتقت اريكة الموقد ، فوثبت القطة خلفها أيضا ، ثم انقضت فجاة على عنقها وشرعت تخنقها ، فتخلصت من القطة وهى تصرخ وألقت بهـا على الارض ، وعادت القطة المخيفة تتسلل اليها ، فغلبها الخوف على أمرها ، وكان سيف أبيها معلقا على الجدار ، فانتزعته انتزاعا وهوت به حتى ارتطم بالأرض محدثا صوتا مجلجلا، واطار مخلبا من مخالب القطة ببراثنه الفولاذية واختفت القطة وهى تعوى فى ركن مظلم من أركان الغرفة .

« أما الزوجة الشابة فلم تبرح غرفتها يومين كاملين ،وفى اليوم الثالث خرجت من الغرفة معصوبة الذراع ، ووقع فى روع الفتاة المسكينة أن زوجة أبيها ساحرة وانها قطعت ذراعها . وفى اليوم الرابع طلب الأب من ابنته أن تاتى بشىء من الماء ، وتكنس المنزل كما تفعل الفلاحة الذليلة ، وحرم عليها دخول الغرف الخاصة به ، وهكذا كان حظ الفتاة البائسة سيئا ، ولكن لم يك لها فى الأمرحيلة ، فلبت مطالب أبيها ، وطرد الأب ابنته فى اليوم الخامس ، فخرجت من المنزل عارية القـدمين ، ولم يتفضل عليها بكسرة خبز تتبلع بها ، وعنـــدئذ فحسب ، ركعت الفتـــاة ، وراحت تنتحب مخيفة

وجهها الأبيض بين يديها ، وهتفت به : « ابتاه ! لقد رميت بابنتك الى التهلكة ! وانزلت الساحرة الدمار بروحك الآثمة ! غفر الله لك ، ان مشيئة الله قد قضت بألا اعيش فى هذا العالم الجميل » ، والتفت ليفكو الى حنة مشيرا الى المنزل واردف يقول : « وهناك ... اترين ؟ انظرى فى هذا الاتجاه ، هنالك من أعلى جزء فى الشاطىء ! أجل ، من تلك الضفة ألقت الفتاة بنفسها فى الماء ، ولم يرها أحد منذ تلك الساعة » .

وسألته حنة فى صوت ينم عن الرعب والفزع ، وهى تحملق فيه بعينين دامعتين و « الساحرة » ؟ .

« الساحرة ؟ تستنتج العجائز مما حدث ان جميع الفتيات اللاتى اغرقن انفسهن فى البركة يخرجن منذ ذلك الحين الى الحديقة فى الليالى المقمرة طلبا للدفء ، وعلى رأسهن ابنة ذلك الضابط . وقد رأت الفتاة الغريقة زوجة أبيها بجانب البركة ذات ليلة ، فانقضت عليها ، وجرتها الى الماء وهى تصرخ ، ولكن الساحرة استطاعت أن تنقذ نفسها حتى فى ذلك الوقت ، فقد تقمصت تحت الماء صورة فتاة من الغريقات ، ونجت بذلك من الجلد باليراعات الخضر التى كن ينوين أن يضربنها بها ، ولتثق بقول هؤلاء العجائز ! ثم انهن يقلن أيضا : ان ابنة الضابط تجمع الفتيات الغريقات كافة كل ليلة وتنظر فى وجه كل منهن ، محاولة أن تجد الساحرة ، ولكنها لم توفق بعد ، وما أن تلقى أى انسان حتى تحمله على التكهن : أى الغريقات هى الساحرة ؟ فان أمسك ، هددته باغراقه فى الماء وهذه يا عزيزتى حنة هى رواية العجائز للقصة ، اما صاحب الأرض الحالى فيود أن يقيم معملا لتقطير الخمور فى ذلك الموضع ، وقد أرسل مقطرا للخمور الى

هنا ليعمل على تنفيذ الفكرة .. ولكنى أسمع أصواتا ! انها أصوات رفاقنا فى طريقهم الى العودة من العنـــاء . طابت ليلتك يا حنة ! استغرقى فى النوم،ولا تفكرى فى قصص اولئك النسوة العجائز ! » .

وما أن قال هذا حتى طوقها بذراعيه فى حرارة ، وقبلها ثم مضى الى حال سبيله .

فقالت حنـة وهى تحدق حالمة فى الأجمة المظلمة : « طابت ليلتك ياليفكو » .

وفى تلك اللحظة بدأ قمر كبير يتوهج ويرتفع من وراء الأفق فى عظمة وجلال ، وكان نصفه لا يزال مختفيا وراء الأفق ، الا أنه غمر الكون جميعا بفيض من ضوئه السنى المهيب ، وتألقت البركة وتلألأت، وبرزت ظلال الأشجار واضحة جلية على صفحة العشب القاتم .

« طابت ليلتك يا حنة ! » ، وقد انبعثت هذه الكلمات من خلفها مقرونة بقبلة .

وقالت وهى تلتفت الى الخلف : « هانت ذا قد عدت ! » ، ولكنها رات فتى لم تكن تعرفه ، فأدارت رأسها وسمعت مرة أخرى من يهتف بها : « طابت ليلتك ياحنة ! » واحست للمرة الثانية بقبلة تنطبع على خدها .

فقالت غاضبة : « لقد جاء الشيطان بفتى آخر ! » .

« طابت ليلتك ياحبيبتى حنة ! » .

« وهذا هو الثالث ! » .

« طابت ليلتك ، طابت ليلتك يا حنة ! » وانهمرت عليها القبلات من كل جانب .

فصاحت حنة : « وى ! انهم لعصبة كاملة من الفتيان » ، وراحت تنتزع نفسها من بين ذلك الحشد من الفتيان الذين كانوا يتزاحمون على تقبيلها ، ومضت تقول : « عجبى لهم ، لا يسأمون من هذا التقبيل الذى لا ينقطع ! لن يمضى وقت طويل حتى يستحيل على ان اخرج الى عرض الطريق ! » .

« وانصفق الباب وهى تنطق بهذه الكلمات ، ولم يسمع من بعد صوت الا صوت المزلاج الحديدى وهو يصر مستكنا فى بيته .

- ٢ -

راس القــرية

ترى هل اتيح لك أن تشهد ليلة من الليالى فى أوكرانيا ؟ ولكن ، هيهات ان تكون قد شهدت ليلة من تلك الليالى ! الا فلتنظر اليهـا تجد القمر يطل على الأرض من عليائه فى كبد السماء ، وقد ازدادت قبتها الهائلة رحابة على رحابة ، وراح القمر يتلألأ ويتنفس ، فغمر الأرض جميعا بضوئه الفضى ، وانطلق الهواء العليل ينعش النفوس ويعمر القلوب بالدفء ، ويثير فيها الرغبة والاشتهاء ، وينشر فى الأرجاء دنيا من الأريج والعبير . ويا لها من ليلة علوية تسحر وتفتن ! وقفت فيها الغابات ساكنة بلا حس ولا حركة ، وغشيها جو من الغموض ، وشاع فى جنباتهـا الوجوم ، والقت على الأرض ظلالا ضخمة ، وهدأت البرك ، وخمدت حركتها ، وحف بمائها البارد الكئيب اطار من البساتين الخضر الداكنة ، ومدت الأدغال البكر من شجر الكرز البرى جذورها فى استحياء الى الماء البارد ، وانبعثت غصونها تهمهم من حين الى حين كأنها غضبى ساخطة ، اذ يتسلل اليها نسيم الليل ، ذلك الماكر الظريف ، ويقبلها وهجع الريف كله ، واستسلم للنعاس ، على حين ظل كل العالم الذى يرف عليه يتنفس حافلا بآيات الروعة وانتصـار ، وتمتلىء النفس بهذه الرحابة والروعة ، وتنبعث الأحلام الجميلة من اعماقهـا محلقة زمرا يجمع بينها التناسق والانسجام .

يا لها من ليلة علوية تسحر وتفتن ! ثم تدب الحياة فى كل شيء فجأة : فى الغابات والبرك والسهوب ، ذلك أن صيحات البلبل الأوكرانى الرائعة تنطلق ، فتقطع سكون الليل ، ويخيل للمرء ان القمر نفسه راح ينصت اليها فى كبد السماء ، وتهجع القرية القائمة على النجد كأنما مسها السحر بسلطانه ، وتتألق الأكواخ جماعات فى ضوء القمر ، فتزداد نصوعا وحسنا عن المألوف ، وتتبدى جدرانها المنخفضة فى الظلام مجلوة تخايل النظر اكثر واكثر ، وكان الغناء قد توقف وشمل السكون كل شيء ، وأخذ القوم الصالحون الذين يخشون الله الى النوم ، الا من ضوء يبص هنا وهناك من النوافذ الضيقة ، وعائلة تأخر بها النوم تجلس أمام باب هذا الكوخ او ذاك تتناول عشاءها .

وراح فلاح كهل ثمل كان يرقص فى الطريق ، يقول بينه وبين نفسه : « ولكن هذه ليست الطريقة المتبعة فى رقصة الهوباك ، وقد كنت اعلم انها خطأ ، ترى ما الذى كان يقوله لى خلى القديم ؟ اى نعم ، هوب !. ترا ـ لا !. هوب ، ترا ـ لا ! هوب ، هوب ، هوب ! وانى لأقسم أن هذه ليست الطريقة المتبعة فى رقصة الهوباك ، واى داع يدعونى الى الكذب ؟ أجل ، انى لأقسم انها ليست الطريقة الصحيحة ، هلم ، هوب ، ترا ـ لا ! هوب ، ترا ـ لا ! هوب ، هوب ، هوب ! » .

وصاحت امرأة مكتهلة كانت تمر به حاملة ملء ذراع من القش : « انظروا الى ذلك الأبله الثمل ! انه ليس بالفتى اليافع ، وانما هو خنزير عجوز يرقص فى الطريق ليلا كأنما يريد أن يحمل الأطفال على الضحك ! عد الى دارك !و قد كان أولى بك ان تكون مخلدا الى فراشك منذ وقت بعيد ! » .

فقال الرجل وهو يكف عن الرقص : « انى للذاهب ، انى للذاهب ، ولست احفل بأى راس من الرءوس ، أيظنن ـ كتب الله على ابيه ان يرى الشيطان ـ انه يستطيع ان يشمخ بانفه على كل انسان لأنه رأس القرية ولأنه يسكب الماء البارد على الناس ابان الصقيع ! ومن يكون هذا الراس حقا ؟ انما انا راس نفسي ! الا فليهلكنى الله ان لم اكن ، اننى راس نفسى » ، ثم استرسل يقول : « هذا هو الحق وما من حق سواه » ومضى فى طريقه ، ثم يمم شطر اول كوخ قادته اليه قدماه ، ووقف امام النافذة ومر بأصـــابعه على لوح الزجاج محاولا ان يجد مقبض الباب ، ثم هتف : « افتحى ايتها الزوجة ! ودعى الـكسل ، افتحى ! لقــد آن لهذا القوزاقى ان يأوى الى فراشه ! » .

وصــاحت بعض الفتيات من خلفه متضاحكات ، وهن فى طريق عودتهن من ذلك الغناء والمرح : « الى اين ياكالينيك ؟ ليس هذا بكوخك ! او ندلك على خوكك ! »

« أرشددننى اليه أيتها الغادات الرحيمات ! »

وقالت احــداهن : « « الغــادات الرحيمــات ! او ســمعتن ؟ يالكالينيك من رجل‌جم الأدب ! يجب علينا أن ندله على‌الطريق الى كوخه جزاء أدبه ، ولــكن مهلا ! ولتتحفنا أولا برقصة »

وقال كالينيك فى بطء وتثاقل وهو يضحك ويهز اصبعه اليهن : « رقصة ؟ يا لكن من فتيات ماكرات ! » ، ثم خطــا الى الأمام مترنحا ، فقد كانت ساقاه أعجز من ان تحملاه فى ثبات ، ومضى يقول : « وهل لى أن اقبلكن جميعا اذا رقصت ؟ لأقبلكن‌جميعا ، اجل كل واحدة منكن » وجرى وراءهن فى خطا مترنحة ، فأطلقت الفتيات صرخة ، ثم لذن جميعا بعضهن ببعض ، ولكنهن ادركن ان

كالينيك لايستطيع ان يجرى على قدميه بالسرعة المطلوبة ، فازددن جراة ، وركضن الى الجانب الآخر من الطريق .

وصحن به وهن يبتعدن مشيرات الى كوخ اكبر كثيرا من سائر الأكواخ « هاك كوخك ! » ، وكان ذلك الكوخ هو كوخ راس القرية، واطاعهن كالينيك ، وانعطف فى ذلك الاتجاه ، وانطلق يذم راس القرية مرة اخرى .

ولكن من يكون هذا الراس الذى اثار مثل هذه الانتقادات والآراء القبيحة ؟ الحق انه كان شخصا ذا شأن فى القرية ، ولاشك اننا نستطيع ان نستغل الوقت الذى يمضى فيه كالينيك الى كوخه ، ونقول عنه كلمة : كان جميع القرويين يخلعون قبعاتهم عندما يرونه ، وكانت الفتيات ، حتى أصغرهن سنا ، يحيينه تحية الصباح واى فتى لا تتوق نفسه الى ان يكون راس القرية ؟ لقد كان راس القرية هذا مطلق التصرف يستطيع ان يصيب من سعوط اى امرىء ما يصيب ، وكان الفلاح القوى يقف له باحترام وقبعته فى يده ، ويمضى شيخ القرية متحسسا صندوق سعوطه المصنوع من لحاء شجر البتولا بأصابعه المكتنزة ، وكان رايه دائما هو الأعلى فى مجلس القرية ، وان كان سلطانه لايتعدى بضعة أصوات ، وكان له الحق وحده تقريبا أن يرسل من يشاء لتمهيد الطرق واصلاحها أو حفر الخنادق . وكان الرجل عبوسا كالح الوجه مقتصدا فى الحديث. وقد حدث منذ زمن بعيد ، بعيد جدا عندما كانت القيصرة كاترين العظمى طيب الله ثراها ، قاصدة الى بلاد القريم ان اختير مرشدا لها .

وادى راس القرية مهمته هذه يومين كاملين ، بل عد اهلا لأن

يجلس على المقعد بجوار حوذى القيصرة ، وقد الف منذ ذلك الحين ان يحنى رأسه فى حركة يشيع فيها الوقار والتأمل وان يربت شاربه الطويل المسترخى ، ويرمق الناس من تحت حاجبيه بنظرات كنظرات الصقر. ومنذ ذلك الحين أيضا كان شيخ القرية يدير دائما دفة الحديث بمهارة مهما كان الموضوع المطروح على بساط البحث ، مصطنعا الطريقة التى كان يوجه بها القيصرة ، ويجلس بها على مقعد الحوذى من عربتها . وكان يحب أحيانا ان يتظاهر بالصمم ، وخاصة اذا سمع شيئا لايحب ان يسمعه ، وكان الرجل لا يطيق الحذلقة ، يرتدى على الدوام سترة طويلة من نسيج أسود من غزل المنازل ، ويتمنطق دائما بحزام من الصوف الملون ، وما من أحد شاهده قط فى اى زى آخر الا حين ارتحلت القيصرة الى القريم ، فقد ارتدى فى تلك المناسبة شملة قوزاقية زرقاء داكنة . وكان من العسير أن يذكر أحد فى القرية ذلك الزمن ، أما الشملة فلا يزال يحتفظ بها فى صندوق .

وقد كان رأس القرية هذا أرمل ، ولكن اخت زوجته كانت تقيم معه فى المنزل ، وكانت تطهو له الغذاء والعشاء وتنظف الأرائك وتبيض الكوخ بالجير، وتنسج له القمصان وتعنى بالمنزل . وقد زعم ناس فى القرية انها لم تك أخت زوجته قط ، ولكننا قد تبينا وشيكا ان الكثيرين كانوا يضمرون الشر للشيخ ، وكان يسرهم ان يشيعوا عنه شائعات السوء ، على ان هذه الشائعات ربماكانت تتسم بشىء من الصحة ، فقد لوحظ ان أخت زوجته كان يبدو عليها الاستياء كلما خرج الى حقل فيه حشد من الفتيات يحصدن، او ذهب لزيارة قوزاقى له ابنة جميلة . ولم تك للشيخ الا عين

واحدة ، ولكن تلك العين كانت له بمثابة الداهية الأريب تستطيع ان تلمح الفتاة القروية الجميلة على بعد شاسع ، على انه لم يك يحدق بها فى وجه مليح فاتن الا بعد أن يتلفت جيدا ليرى هل كانت أخت زوجته تراقبه؟ وهانحن أولاء قد قلنا عن شيخ القرية كل ماتقتضينا الحال ان نقوله تقريبا ، فى الوقت الذى كان فيه كالينيك الثمل يسير فى طريقه الى كوخه . وكان الرجل لايزال ماضيا على سنته ينتقى خير النعوت يصف بها شيخ القرية بقدر ما كان يسمح له لسانه البطىء الثقيل .

- ٣ -

غريم مفـــــاجىء

مكيـــــدة

وقال ليفكو لرفاقه الذين استخفهم المرح وأرادوا منه ان يشاركهم فى ضروب جديدة من اللهو : « كلا ايها الرفاق ! كلا ، لن أشارككم فى لهوكم ! اما زلتم تطلبون اللهو؟ واعجبا ! الم يكفكم ما احدثتم من ضر ؟ ان الناس يقولون ، علم الله ، اننا سفلة أوغاد على قدر ماراوا منا حتى الآن ، وقد كان أولى بكم ان تأووا الى فراشكم ! وداعا أيها الرفاق ! وطابت ليلتكم ! » ، ثم سار يضرب فى الشـــارع بخطا سريعة .

وتساءل وهو يقترب من الكوخ الذى فيه أشجار الكرز وقد مر بنا وصفه : « ترى هل أخلدت حبيبتى حنـــة المشرقة العين الى النوم ؟ » ، وكانت أصوات خفيضة تترامى الى السمع وسط هذا السكون. ووقف ليفكو مكانه ، وكان يستطيع ان يرى قميصا ابيض من خلال الشجر، وتساءل قائلا: « مامعنى هذا ؟ » . ثم اقترب قليلا وهو يتلصص واختبأ خلف شجرة ، وكان وجه الفتـــاة التى وقفت امامه يتألق فى ضوء القمر. لقد كانت هى حنة ! ترى من يكون هذا الرجل الطويل الذى كان يوليه ظهره ؟ وحدق فيه النظر محاولا معرفته ، فذهبت محاولته ادراج الرياح ، ذلك ان الظلال

كانت تغمره من قمة رأسه الى اخمص قدمه ، اللهم الا بعض الضوء كان يلقى عليه شعاعا من الأمام ، ولو قد خطا ليفكو أقل خطوة الى الأمام لتعرض للخطر من ان يكتشف أمره ، فاستند الى الشجرة فى هدوء وسكون واستقر رأيه على ان يبقى حيث هو ، وهتفت الفتاة باسمه فى وضوح ، فغمغم الرجل الطويل من بين أسنانه يقول فى صوت أجش : « ليفكو ؟ ان ليفكو لمخنث ، ولو اننى شاهدته معك لنزعت قنزعته من جلد شعره ! »

وتمتم ليفكو يقول فى صــوت خافت : « بودى أن أعرف ذلك الوغد الذى يقول مفاخرا انه سينتزع قنزعتى من جلد شعرى ! » ، ومد عنقه محاولا الا تفوته كلمة واحدة ، ولكن الغريب واصل حديثه فى صوت خفيض جدا فلم يستطع ليفكو ان يســمع كلمة واحـدة مما يقول .

وقالت حنة عندما فرغ الرجل من حديثه : « الا تخجل من نفسك ؟ انك تكذب ، وتخدعنى ! انك لا تحبنى ، ولن أصدق أبدا انك تحبنى ! »

ومضى الرجل الطويل القامة فى حديثه قائلا : « انى لأعلم ان ليفكو قد القى على مسامعك هراء كثيرا ، فأدار رأسك » ، وخيل الى الشاب عندئذ ان هذا الصوت لم يكن غريبا على أذنه كل الغرابة ، وبدا انه قد سمعه من قبل ، واسترســل الغريب يقول باللهجــة نفســها : « لأرين ليفكو من أى معدن صــنعت ! انه يظن اننى لا أدرك الاعيبه الشهوانية ، وليــذوقن هــذا الوغد الصــغير طعم قبضة يدى ! »

وما ان سمع ليفكو هذا حتى عجز عن ان يكبح جماح غضبــه ،

فخطا ثلاث خطوات ، وطوح قبضة يده ليلطمه لطمة على اذنه قـد تقذف به فى الهواء على الرغم مما كان يبدو عليه من القوة واليأس، الا ان ضوء القمر أضاء وجه الغريب فى تلك اللحظـة ، وعقـدت الدهشة لسان ليفكو ، اذ رأى أباه واقفا امامه ، واهتزت رأس ليفكو على غير وعى منه ، وسمعت حنة حفيفا ، فانفلتت الى الكوخ، وصفقت الباب وراءها ! »

وصاح أحد الشبان فى تلك اللحظة متسللا ، وطوق شيخ القرية بذراعه « طابت ليلتك ياحنة ! » ثم صـــادفت يده شارب الشيخ الخشن ، فتراجع مذعورا .

وصاح شاب آخر: « طابت ليلتك يا فاتنتى ! » ، الا ان الشيخ دفع هذا الشاب دفعة قوية قذفت به فى الهواء .

وصاح عدد من الشبان متعلقين بعنقه : « طابت ليلتك ، طابت ليلتك ياحنة ! »

وصاح الشيخ وهو يدفعهم عنه ويركلهم بقدمه : « اليكم عنى ايها المستهترون الملاعين ! احقا تطلبون حنة ! اذهبوا ، ولتشنقوا أنتم وآباؤكم يا أولاد الشيطان ! انهم يتساقطون على المرء تساقط الذباب على الشهد ! تالله لأؤدبنكم ! »

وصاح الشبان : « انه شيخ القرية ! انه الشيخ ! » ، وتفرقوا شذر مذر ! ..

وقال ليفكو ، وقد افاق من دهشته ، واخذ يشيع الشيخ بنظراته وهو يبتعد صابا لعناته : « اذن فهذا هو أبى على حقيقته ! وتلك هى الحيل التى ينسج خيوطها ! يا له من أمر طريف ! وقدكنت

أتساءل : « لم يتظاهر بالصمم فى كل مرة أهم فيها بالحديث فى الموضوع ؟ انتظر قليلا أيها التيس ! لأعلمنك كيف تكون عاقبة التسكع تحت نوافذ الحسان ! اجل ، لأعلمنك كيف تكف عن غواية حبيبات غيرك من الرجال ! » ، ثم صاح ، ملوحا بيده الى الشبان وكانوا قد اجتمعوا زمرة واحدة مرة أخرى : « ايه ايها الرفاق ! تعالوا هنا ، تعالوا هنا ، من هذا الطريق ! تعالوا هنا ! لقد حاولت أن أحملكم على الايواء الى فراشكم ، ولكنى عدلت الآن عن رأيى ، وانى على استعداد ان ألهو معكم الليل بطوله »

وقال شاب بدين عريض المنكبين كان يعد أكثر فتيان القرية مرحا وأشدهم ميلا للأذى : «هكذا يكون الكلام! وانى لأشعر دائما بالسأم اذا عجزنا عن ان ننعم بقدر مناسب من اللهو ، بل أحس دائماكأننى قد فاتنى شىء ، أجل ، كأننى فقدت قبعتى أو غليونى ، والحق ان هذا ليس من شيمة القوزاق ! »

« ما قولكم فى ان نهز شيخ القرية هزا ؟ »

« شيخ القرية ؟ »

« أى نعم ، ماحسب هذا الرجل ؟ وماذا يظن فى نفسه ؟ انه يحكمنا كما لو كان زعيما من زعماء القوزاق ، ولا يكفيه أن يعاملنا كما لو كنا بعض عبيده ، بل يجرى أيضا وراء حبيباتنا ، ولا أعتقد انه ترك حسناء واحدة فى القرية بأسرها ألا غازلها »

وصاح الفتيان : « هذا صحيح ! هذا صحيح ! »

« أعبيده نحن أيها الفتيان ؟ ألسنا من طينة واحدة سواء بسواء؟ نحمد الله ، فما نحن الا قوزاق أحرار ، ولنرينه أيها الرفاق اننا قوزاق أحرار ! »

فصـــاح الفتيان : « لنرينه هذا ! اما وقد صح عزمنا على ان نشن الغارة على الشيخ فلن نرحم كاتبه أيضا ! »

« لن نرحم الكاتب ! ولقد فرغت لتوى من وضـــع أغنية رائعة تنطبق على الشيخ كل الانطباق » ، ثم مضى ليفكو يقول وهو يضرب على أوتار بندورته : « هلموا بنا ، ولأعلمنكم الأغنية ، ولترتدوا من الملابس ما يقع فى أيديكم ! »

وقال الشاب القوى المتهور وهو يضرب قدما بقدم ويصفق بيديه: « هلموا ايها القوزاق الشجعان ، يا للمجد ! ويا للمتعة ! ان المرء اذا أخذ نفسه بشىء من اللهو أحس كأنه يحتفل بالسنوات الخوالى فيفيض قلبه بالبشر، ويخلو باله من الهم وبدا له كأن روحه انطلقت الى الفردوس ، هلموا أيها الرفاق ، هلموا بنا ننعم بشىء من اللهو!»

وسار الجمع صاخبا مضوضيا يجتاز الطريق ، واستيقظت عجائز النسوة الصالحات من نومهن على صياح الفتيان ، وأغلقن نوافذهن ، ورسمن اشارة الصليب والنوم يداعب جفونهن ، ثم قلن : « وى ! لقد شرع الفتيان يمرحون ! »

- ٤ -

الفتيان يمرحون

لم يبق فى القرية اكواخ مضاءة الا كوخ واحد فى طرفها هو كوخ شيخها ، وكان الرجل قد فرغ من تناول عشائه منذ وقت طويل ، ولاشك انه كان حريا بأن يكون مستسلما للنوم فى مثل هذه الساعة لولا ان زائرا كان قد الم به ، فقد أرسل صاحب ملك له قطعة صغيرة من الأرض بين املاك القوزاق الاحرار هذا الرجل ليقيم على هذه القطعة معملا لتقطير الخمور، وكان الزائر رجلا قلة بدينا قصير القامة له عينان صغيرتان لا تكفان عن الابتسام ، والظاهر انهما كانتا تعبران عما يحس به من سرور حين يدخن .

وجلس الزائر فى مكان الشرف تحت الأيقونات ، وقد دأب على البصق وعلى ان يضغط بابهامه رماد التبغ الذى ظل يتساقط من غليونه القصير ، واخذت سحب الدخان تنتشر بسرعة من فوقه وشملته بضبابة زرقاء داكنة حتى بدا كأنه مدخنة كبيرة لمعمل من معامل تقطير الخمور ملت البقاء على سقفه ، وظنت انها فى حاجة الى تغيير، فاتخذت المكان اللائق بها فى كوخ شيخ القرية . وبرز شارب كث قصير من تحت انف الزائر ، على ان معالمه لم تتضح فى هذا الجو المشبع بالدخان ، فبدا كأنه فأر أمسك به مقطرالخمور وقبض عليه بفمه مفتاتا على القط الذى الف مخزن الحبوب .

وأحس شيخ القرية بانه ملازم بيته ، فجلس مرتديا قميصه وسروالا من الكتان ، وكان يزر عينه الشبيهة بعين النسر رويدا رويدا ، فيخمد بريقها خمود الشمس الغاربة . وكان أحد شرطة القرية « كونستابل » الذى يساعد شيخها ، يدخن غليونا فى طرف المنضدة ، وكان لايزال يرتدى شملته احتراما لمضيفه .

وسأل الشيخ مقطر الخمور ، وهو يرسم اشارة الصليب على فمه بعد ان تثاءب : « أتنوى اقامة معمل تقطير الخمور فى وقت قريب؟ »

« ربما بدأنا التقطير بعون الله فى اغسطس ، وانى لأراهن على انه ما ان يحل عيد الشفاعة حتى يكون شيخنا المحترم ماضيا فى لعبة الكلمات المتقاطعة يخط رقعتها بقدميه فى الطريق » .

واختفت عينا مقطر الخمور عن الأنظار وهو ينطق بهذه الكلمات، وبدت فى مكانهما تجاعيد امتدت حتى أذنيه ، واهتز جسمه كله من شدة الضحك ، وتركت شفتاه المرحتان الغليون لحظة .

وقال مضيفه ، مقطبا وجهه فيما يشبه الابتسامة : « أرجو من الله ذلك ، وانى لأحمده الآن على ازدياد معامل تقطير الخمور بعض الزيادة ، فقد حدث منذ سنوات ، عندما كنت دليلا للقيصرة فى طريق بيريياسلاف ، ان بيزبورودكو ، رحمة الله عليه ... »

« ايه ياصديقى العزيز! مابالك تذكر تلك الأيام ، وى ! لم يكن يقوم فيما بين كريمينشوج ورومنى الا معملان لتقطير الخمور فى تلك الأيام ، اما فى يومنا هذا .. ترى هل سمعت بما ينتوى الألمان الملاعين فعله ؟ انهم سيعدلون عن حرق الخشب فى معامل تقطير الخمور كما يفعل المسيحيون من أهل الرزانة والوقار ، وسيستبدلون به فى

وقت قريب نوعا من البخار الشيطانى ، على ما يقولون ! » ، ونظر مقطر الخمور ، وهو يقول هذا ، الى المنضدة والى يديه المستندتين عليها ، فى تأمل وتفكير ، ومضى يقول : « لا أستطيع أن أتصوركيف يدور المعمل بالبخار ! »

وقال شيخ القرية : « يا لغباوة هؤلاء الألمان ، وليغفر الله لى! وددت لو جلدتهم ، اولاد الشيطان ! او قد سمع أحد بمثل ما يقولون من غلى شىء بالبخار ؟ لو صدق هذا ما استطعت ان تتناول ملء ملعقة من الماء الا اذا الهبت شفتيك كالخنزير الرضيع » .

وقالت أخت زوجة الشيخ ، وهى تجلس على أريكة الموقد متربعة : « وانت أيها الصديق ، أو تبقى هذا الوقت كله من غير زوجتك؟»

« وى ! وما حاجتى اليها ؟ لو كانت تستحق لاختلف الأمر »

وسأله الشيخ وهو يحدجه بعينه الواحدة : « اليست بهية الطلعة ؟ »

« بهية الطلعة حقا ! انها عجوز كالشيطان نفسه ، أما وجهها فقد امتلأ بالتجاعيد كأنه الكيس الخاوى »

واهتز مقطر الخمور القصير البدين بالضحك حتى شمل كيانه كله.

وفى تلك اللحظة اخذ شىء يتحسس الباب ، ثم انفتح الباب واجتاز العتبة فلاح دون ان يخلع قبعته ، ووقف فى وسط الكوخ مترددا ، وقد فغر فاه وأخذ يحملق فى السقف ، وكان هذا الفلاح هو صديقنا كالينيك .

وقال كالينيك وهو يستوى على الأريكة قرب الباب غير آبه بالجماعة : « هأنذا قد عدت أخيرا الى دارى ، لقد أطال الشيطان ربيب الشر

الطريق ! أجل أطاله حتى ليسير المرء فيه ويسير فلا يبلغ نهايته ! ايه ، انى لأشعر كأن أحدا كسر ساقى . أيتها الزوجة ، ائتى بجلد الماعز وافرشيه لى ، فلست بجالس معك على الوقد ، أجل لن افعل ذلك ، فان ساقى تؤلمنى ، ابحثى عنه ، انه هناك تحت الأيقونات. ولكن حذار أن تقلبى القدرالتى فيها السعوط ، بل كفى.. لاتلمسيه لاتلمسيه ! فربما كنت ثملة الليلة . دعينى آت به بنفسى ! »

وحاول كالينيك النهوض ، ولكن قوة لا قبل له بها جعلته يتسمر فى مقعده .

وقال شيخ القرية : « ما اعجب هذا ! رجل يدخل بيت رجل آخر، ويلقى بالأوامر كما لو كان فى بيته ! القوا به بقضه وقضيضه خارج الدار ! »

وقال مقطر الخمور وهو يجذبه من ذراعه : « دعه يسترح أيها الصديق ! انه لرجل نافع ، ولو قد أكثر الله من امثاله لراجت سوق معمل تقطيرنا ! »

ولم تكن سماحة الطبع هى التى حملت مقطر الخمور على قول ما قال ، ذلك انه كان متطيرا يؤمن بالخرافات على اختلاف أنواعها وأشكالها ، ويعتقد ان طرد رجل اتخذ مجلسه بالفعل على أريكة يجر الويلات والمصائب .

وغمغم كالينيك وهو مستلق على الأريكة : « ترى ماذا يصيبنى عندما اتقدم فى السن ؟ لوكنت ثملا ما ازعجنى الأمر، ولكننى لست ثملا ، أجل لست ثملا وأيم الحق ، ولم اكذب ؟ انى لمستعد ان أصرح لشيخ القرية نفسه بهذا ، وماذا يهمنى من أمر الشيخ ؟

وددت لو غص حلق هذا الكلب ! وانى لأبصق عليه ! ولشد ما اتمنى ان تدهم عربة هذا الأعور الملعون ! ما باله يغرق الناس بالماء ابان الصقيع ؟ »

وقال الشيخ وهو ينهض من مقعده فى غضب : « اذن فقد شق الخنزير طريقه الى الكوخ ، وهاهو ذا يضع قائمتيه على المائدة !؟» وفى تلك اللحظة سقط عند قدميه حجر ثقيل حطم النافذة تحطيما، فتوقف عن الكلام برهة ، ثم مضى يقول وهو يلتقط الحجر: « لو كنت اعرف أى مجرم هذا الذى ألقى بالحجر لعلمته الا يقذف الناس بالحجارة ! » ، وأردف وهو ينظر الى الحجر الذى فى يده بعين يتطاير منها الشرر : « يا للألاعيب ! وددت لو غص حلقه بهذا الحجر ! »

فقال مقطر الخمور وقد شحب لونه : « كف ياصديقى ! عصمك الله فى الدنيا والآخرة من أن تنعم على أحد بهذا السباب ! »

« هاكم بطلا ! لعنة الله عليه ! »

« انزع هذا من مخيلتك ياصديقى ! وانى لأحسب انك لم تسمع بما أصاب المرحومة حماتى ؟ »

« حماتك ؟ »

« أى نعم ، فقد حدث ذات مساء ، وربما كان ذلك فى ساعة ابكر قليلا من الساعة التى نحن فيها ــ ان كانت حماتى وحمى وأجيرهما واجيرتهما الفتاة وأولادها الخمسة يجلسون على مائدة العشاء ، وأخذت حماتى تهز بعض لقيمات القاضى مسقطة اياها من القدر فى طاس لتبرد ، وكان الجوع قد عضهم جميعا بنابه بعد أن

فرغوا من أعمالهم ، فلم يصبروا على اللقيمات حتى تبرد ، واقبلوا عليها بأعواد من الخشب طويلة يلتقطونها ويأكلونها ، ولاح لهم فجأة رجل لم يعرف أحد من أين هبط عليهم ولا من يكون الا الله .

«وطلب الرجل منهم ان يسمحوا له بالجلوس الى المائدة ، وما كان الطعـــام ليحرم على رجل جائع ، فاعطوه هو أيضـــا عودا من الخشب . الا ان الزائر التهم لقيمـــات القـــاضى كما تلتهم البقرة الدريس ، وأصاب كل من الآخرين لقيمة واحدة ، على حين اخـــذ الرجل يضرب بعوده بحثا عن غيرها ، واذا بالطاس انظف من أديم الأرض فى دار السيد الفاضل .

« وانزلت حماتى بعض لقيمـــات أخرى من القـــدر ، وظننت ان الضيف قد أكل كفايته وانه سيلتهم هذه المرة أقل مما يلتهم ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، فقد اخذ يلتهمها بأسرع مما التهم سابقتها حتى اتى على ما فى الطاس مرة أخرى ، فقالت حماتى بينها وبين نفسها : « الا فليغص حلقك باللقيمات ! » ولم يلبث الرجل انغص حلقه وسقط على الأرض ، فهرعوا اليه ، فوجدوه قد أسلم الروح، ذلك انه كان قد اختنق » .

وقال شيخ القرية : « لقد نال جزاءه ذلك النهم الملعون ! »

« ربما كان القول ما قلت ، ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد، فان حماتى لم تذق طعم الراحة منذ ذلك الحين ، وما ان جنالليل حتى ظهر الميت ، فقد جلس هذا الفتى الملعون على المدخنة منفرج الساقين قابضا بأسنانه على لقيمة من اللقيمات وكان الهدوء ينشر ظلاله سحابة النهار فلا يسمعون عنه شيئا ، حتى اذا حل الغسق ظهر هذا الكلب جالسا على المدخنة ! »

« قابضا بأسنانه على اللقيمة ؟ »

« أجل ، قابضا بأسنانه على اللقيمة »

« ما أعجب ما تقول ياصديقى ! لقد سمعت بشىء من هذا القبيل فى عهد المغفور لها قيصرتنا ... »

وتوقف المتكلم عن الحديث ، فقد بلغ أسماعهم طرق أقدام ترقص تحت النافذة ، وانبعثت البندورة اول الأمر تشدو شدوا رقيقا ، ثم تلاها صوت يترنم ، وارتفع رنين الأوتار، واشتركت عدة أصوات فى الانشاد ، ثم علا الغناء كالعاصفة :

هل سمعتم ايها الفتيان آخر الأنباء ؟

راسنا « أى شيخنا » مختل العقل !

ان راسنا الأعور له راس كالبرميل

تفككت الواحه !

***

فتعال يا صانع البراميل ودقه دقا

واحزمه باطواق من الصلب !

***

تعال يا صانع البراميل ودق الرأس بمطرقتك

واضرب بعزيمة صادقة !

ان راسنا أعور ، اشتعل راسه شيبا ،

انه عجوز ، عمره عمر الخطيئة نفسها . ويا لرأسه الأخرق

يزخر بالأهواء والأفكار الشهوانية

يغازل الفتيات هذا الغبى !

أيجوز لك ان تحاول تقليد الشـــبان ؟
وقد كان أولى بك أن تـكون مسجى فى قبرك
تلقى فيه من قفاك وسوالفك !
ومن قنزعتك التى تزهو بها وتتعاجب !

***

وقال مقطر الخمور وهو يميل براسه قليلا ، ويلتفت الى مضيفه الذى كانت قد اذهلته الوقاحة الشديدة : « ما أعذب هذه الأغنية ياصديقى ! ما أعذبها ! ومما يرثى له انهم يتحدثون عن رأسهم بهذه العبارات المهينة »

ثم وضع يديه على المائدة مرة أخرى ، وقد التمعت عيناه ببريق الفرح والسرور وتهيأ لسماع المزيد ، فقد كان يترامى الى الأسماع من الخارج عاصفة من الضحك والصياح : « اعد ! اعد ! ». على ان العين البصيرة كانت تستطيع ان ترى فى الحال ان الدهشة لم تكن هى التى سمرت شيخ القرية فى مكانه ، ذلك ان السنور المحنك ينتهج هذه الطريقة نفسها أحيانا ، فيدع الفأر القليل الخبرة يدور حول ذيله ، ويروح هو يدبر خطة سريعة يقطع بها على الفأر سبيل الرجوع الى جحره . وكانت عين الشـــيخ الواحـــدة لاتزال تحدق بالنافذة ، على حين كانت يده قد أمسكت بمقبض الباب الخشبى بعد أن أومأ بها الى الشرطى ، ثم ارتفع صـــوت فى الطريق فجأة ، وأسرع مقطر الخمور فملأ غليونه وهرع الى الخارج ، فقد كان حب الاستطلاع صفة من صفاته العاطرة الكثيرة ، الا ان الفتيـــان الأوغاد كانوا قد تفرقوا فى كل اتجاه .

وصاح شيخ القرية وهو يجر رجلا من ذراعه يرتدى جلد ماعز

مقلوبا : « هيهات ان تفلت منى ! »

وانتهز مقطر الخمور هذه الفرصة وجرى ليلقى نظرة على هـذا الذى عكر صفو الأمن ، ولكنه تراجع مذعورا ، اذ شاهد لحية طويلة ووجها مخيفا علاه الطلاء وصاح الشيخ : « هيهات ان تفلت منى! » وأخذ يجر الى المنزل اسيره الذى لم يك يبدى أية مقاومة ، بل كان يتبعه فى هدوء كما لو كان ذاهبا الى كوخه ، وقال الشيخ للشرطى: « افتح المخزن ياكاريو ، ولنحبسه فى المخزن المظلم ، ثم نوقظ الكاتب ونجمع الشرطة ، ونقبض على هؤلاء الصاخبين كافة ، ونصدر عليهم جميعا حكمنا الليلة ! »

وأولج الشرطى مفتاحه فى قفل صغير ، فصلصل وفتح المخزن ، وانتهز الأسير فى تلك اللحظة فرصة الظـلام ، فأتى بمجهود عنيف تخلص به من قبضته .

وصاح الشيخ وهو يشدد قبضتهعلى بنيقة ثوبه : « الى أين ؟ »

فصرخ صوت رفيع مجلجل قائلا : « دعنى ! فاننى انا من تعلم!»

« لن يجديك هذا شيئا يابنى ، ولتصرخ كالشيطان أو كالمرأة ، ولكنك لن تخدعنى » ، ودفعه الى المخزن المظلم دفعة ، فتأوه الأسير المسكين ، وخر على الأرض ، واصطحب شيخ القرية الشرطى وقصد الى كوخ الكاتب ، يتبعهما مقطر الخمور وهو ينفخ كما تنفث الباخرة دخانها .

وسار ثلاثتهم وقد أرخو ابصارهم ، واستغرقوا فى التفكير، واذا بهم يصرخون جميعا صرخة رجل واحد فى منعطف بزقاق مظلم ، فقـد اصابتهم لطمة عنيفة على جباههم ، ورجع الصدى صـوت صرخة

مماثلة ، وزر شيخ القرية عينه فرأى ، والدهشة تتملكه ، الكاتب ومعه شرطيان .

« لقد كنت قادما لرؤيتك أيها الـكاتب المحترم ! »

« وأنا كنت قادما للقاء سيادتكم ايها الشيخ الموقر ! »

« ان أمورا عجيبة تقع ايها الـكاتب المحترم ! »

« غاية فى العجب أيها الشيخ الموقر ! »

« عجبا ! وأى أمور تعنى ؟ »

« لقد جن جنون الفتيان ، وهم يسيرون فى الطرقات عصابات كاملة على نحو شائن معيب ، ويصمون سيادتكم بعبارات يمنعنى الخجل من ترديدها . ان المسكوفى الثمل لايطاوعه لسانه القذر على النطق بهذه العبارات » وكان الكاتب الهزيل الذى ارتدى سروالا من الكتان المنقط وصديريا يحاكى فى لونه ثفالة النبيذ ، يقول هذا كله وهو يمد عنقه حينا ويرده الى مكانه حينا آخر . « وكنت قد استسلمت للنوم وشيكا عندما أيقظنى هؤلاء الأوغاد الملاعين بأغانيهم المخزية وطرقهم على الباب ، وكان فى نيتى أن أنزل بهم الجزاء الرادع لولا أنهم هربوا جميعا وأنا مشغول بارتداء سروالى وصدارى ، على أن زعيمهم لم يفلت ، فهو يشدو الآن فى الكوخ الذى نحبس فيه المساجين . ولقد كنت متلهفا الى معرفة اى صنف من المجرمين هذا الذى قبضنا عليه ، لولا ان وجهه قد غشيه السواد كله فأصبح كوجه الشيطان الذى يضع المسامير لأهل المعصية » .

« وكيف كان لباسه أيها الكاتب المحترم ؟ » .

« كان يرتدى جلد الماعز مقلوبا ايها الشيخ الموقر » .

« أو تكذب أيها الكاتب المحترم ؟ وما قولك فى ان هذا الوغد يجلس الآن فى مخزنى ؟ » .

« كلا أيها الشيخ ، واننى لاحسب أن الأمر قد التبس عليك بعض الشيء ، ولست أقصد بذلك أن أسيء اليك » .

« على بمصباح ! ولنلق عليه نظرة » .

وجيء بالمصباح ، وفتحوا الباب وصرخ شيخ القرية صرخة تنم عن الدهشة اذ راى امامه اخت زوجته . وانهالت عليه المراة تقريعا : « بالله خبرنى ، أو فقدت تلك المسكة من العقل التى لم يكن لك قط غيرها ؟ وهل كان فى راسك ذى العين الواحدة ذرة من بصيرة عندما دفعتنى الى المخزن المظلم ؟ لقد كان من حسن حظى ان رأسى لم يرتطم هو والخطاف الحديدى ، الم أصرخ فيك بأننى أنا من تعلم ؟ الا تبالك أيها الدب الملعون ، لقد قبضت على ببراثنك الحديدية ودفعتنى الى داخل المخزن ، فلتجزينك الأبالسة الجزاء نفسه فى العالم الآخر !» .

ونطقت المراة بالكلمات الأخيرة وهى فى الطريق ، ذلك انها كانت قد خرجت لبعض شانها .

فقال شيخ القرية متمالكا زمام نفسه : « اجل ، ارى انك انت هى . ما قولك ايها الكاتب المحترم ؟ اليس ذلك التيس وغدا ما كرا ؟ »

« انه لوغد ماكر ايها الشيخ الموقر » .

« ألم يحن الوقت بعد لنلقى على هؤلاء الاوغاد جميعا درسا قاسيا ، ونحملهم على العمل ؟ » .

« لقد حان الوقت ايها الشيخ الموقر » .

« لقد ظن هؤلاء الحمقى – ترى ماذا هناك ؟ يخيل الى اننى سمعت صوت أخت زوجتى تصرخ فى الطريق – لقد ظنوا انهم مثلى سواء بسواء ، أجل ظنوا اننى واحد منهم ، لا اعـدوا أن اكون قوزاقيا من غمار القوزاق ! » . وبدا من تلك النحنحة التى اطلقها الشيخ عقب

هذه الكلمات والطريقة التي رفع بها بصره من تحت حاجبيه انه كان يهم بالحديث فى أمر ذى شأن .

« لقد حدث فى السنة السابعة عشرة . . . وأنا لا أستطيع أن أتذكر أبدا تلك التواريخ المربكة ـ ان صدر الأمر الى ليداتشي الذى كان وقتئذ يلى منصب المأمور ، بأن يختار من القوزاق انجبهم جميعا ، آه ! » ، ونطق « بآه » هذه وقد رفع أصبعه فى الهواء : « أجل ! انجب القوزاق جميعا ليؤدى مهمة الدليل للقيصرة ، وكنت فى ذلك الوقت . . . » .

«صدقت أيها الشيخ الموقر، واننا لنعلم هذا جميعا ، أجل نعلم كيف نلت الحظوة لدى القيصرة ، ولتسلم الآن بأننى كنت على حق ، فقد حملت نفسك وزرا عندما قلت : انك قبضت على ذلك الوغد الذى يرتدى جلد الماعز الأسود » .

«أما بخصوص ذلك الشيطان الذى يرتدى جلد الماعز الأسود ، فلنقيدنه بالأغلال ، ونعاقبه عقابا شديدا حتى يكون عبرة للآخرين ! وليعلموا معنى السلطان ! فمن الذى يولى رأس القرية ان لم يكن هو القيصر نفسه ؟ ثم لنقبض على الشبان الآخرين ، فانى لم انس أن هؤلاء الأوغاد الملاعين ساقوا قطيعا من الخنازير الى حديقة خضراواتى فأتى على جميع ما فيها من كرنب وخيار ، ولم أنس أن أولاد الشيطان هؤلاء قد رفضوا أن يدرسوا قمحى ، ولم أنس . . . ولكن لعنة الله عليهم جميعا . يجب أن اكشف عن حقيقة ذلك الوغد الذى يرتدى جلد الماعز مقلوبا ! » .

وقال مقطر الخمور : « انه فيما يبدو مجرم داهية ! » ، وكانت وجنتاه أثناء هذا الحديث كله يغشاهما الدخان باستمرار وكأنهما مدفع حصار ، واخذت شفتاه ، بعد أن خلتا الغليون القصير ، تنفثان سيلا من

الدخان حقا ، ثم اردف يقول : « ولن نخسر شيئا اذا اقمنا الفتى بالعمل فى مصنع التقطير ، وافضل من هذا ان نعلقه فى قمة شجرة سنديان بدلا من المبخرة » .

ولم تبد هذه الملحة سخيفة كل السخافة فى عين مقطر الخمور ، ولم ينبث ان صح عزمه على ان يكافىء نفسه عليها بضحكة خشنة دون أن ينتظر موافقة الآخرين ! .

وكان القوم قد اشرفوا فى تلك اللحظة على كوخ صغير أوشك ان يخر على أحد جانبيه ، وازداد اصحابنا فضولا وتكأكئوا جميعا حول الباب ، واخرج الكاتب مفتاحا ، وراح يلم بالقفل مصلصلا ، فتبين انه مفتاح صندوقه ، وعيل صبر الجماعة ، ثم دس الكاتب يده فى جيبـــــــه متحسسا المفتاح ، ولكنه لم يعثر عليه فأخذ يسب ويلعن .

وهتف آخر الأمر : « ها هو ذا ! » ، وانحنى يضرب فى أعماق جيبه الرحب الذى كان قد زود به سرواله الذى شاعت الوكت فى رفعته كلها ، محاولا اخراج هذا المفتاح ، وما أن نطق الكاتب بعبارته الأخيرة حتى بدا ان قلوب اصحابنا قد امتزجت جميعا وأصبحت قلبا واحدا اخذ يدق بقوة حتى أن صرير القفل نفسه لم يستطع ان يطغى على صوت دقاته المضطربة ، وانفتح الباب ، وشحب وجه شيخ القرية حتى غدا كالملاءة البيضاء ، وشعر مقطر الخمور برعدة باردة تسرى فى وصاله ، ولاح ان شعر راسه قد وقف فى الهواء ، وارتسم الرعب على محيا الكاتب ، وتسمر رجال الشرطة فى مكانهم ، وعجزوا عن اغلاق افواههم التى كانت قد انفغرت فى وقت واحد ، ذلك انهم وجدوا اخت زوجة شيخ القرية واقفة أمامهم ! .

ولم تكن المراة على كل حال اقل دهشة منهم ، الا انهـــــا تمالكت

نفسها ، ثم اتت بحركة كما لو كانت تريد أن تدنو منهم .

وصاح الشيخ صيحة وحشية : « مكانك ! » ، وصفق الباب فى وجهها ، ثم مضى يهتف : « أيها السادة ، انه الشيطان ، الى بمصباح ، وعجلوا ! لن افلت هذا الكوخ ولو كان ملك القيصر نفسه ، أشعلوا فيه النار ، أشعلوا فيه النار ، حتى لا تتركوا من عظام الشيطان نفسه شيئا على الأرض » .

وصرخت أخت زوجته فزعا وهى تسمع من خلال الباب هذا الحكم المشئوم .

وصاح مقطر الخمور : « ما هذا الذى تريدون ان تفعلوه أيهـــا الأصدقاء ؟ ان شعركم والحمد لله قد اتى عليه الشيب أو كاد ،ولكنكم لم تؤتوا الحكمة بعد . ان الساحرة لا تحترق بالنار المألوفة ! وانما نار الغليون هى التى تحرق من يتقمصه الشيطان ! فاصبروا قليلا ولن تنقضى لحظة حتى أعد للأمر عدته ! » .

وما أن فرغ من قوله حتى نفض بعض الرماد الحامى من غليونه على حزمة من القش وراح ينفخ فيها ، وكانت المرأة المسكينة قد غلبها اليأس على أمرها فى هذه الأثناء ،فانبعثت ترفع عقيرتها تبتهل اليهم وتتوسل .

وقال الكاتب : « انتظروا أيها الأصدقاء ، لماذا نحمل أنفسنا وزرا فى غير مقتض ؟ ربما لا تكون هى الشيطان ، ولئن رضى هذا المخلوق الذى يجلس هناك أيا كان شأنه بأن يرسم اشارة الصليب ، كان ذلك بينة لا تنقض على أنه لا يمت للشيطان بسبب » .

وصادف هذا الاقتراح القبول لدى الجماعة .

وقال الشيخ وهو يلتفت وراءه كأنه يبحث عن ملجأ أمين يلوذ به اذا اضطره الأمر الى التراجع : « ارسمى علامة الصليب ! » .

ورسمت المرأة علامة الصليب .

« يا للعنة ! انها اخت زوجتى حقا ! » .

« اى روح شريرة تلك التى رمت بك الى هذا الجحر يا أختاه ؟ » .

وقالت المرأة للقوم وهى تنتحب ان الفتيان قبضوا عليها فى الطريق على الرغم مما اظهرته من مقاومة ، ودفعوها دفعا الى الكوخ من نافذته العريضة ، ثم سمروا مصراع النافذة . ونظر الكاتب الى النافذة فاذا بالمسامير التى فى عرى المصراع العريض قد نزعت من مكانها ، وثبت المصراع بلوح من اعلاه .

وصاحت المرأة وهى تمضى نحوشيخ القرية فتراجع مترنحا وكان لا يزال يحدجها بعينه الواحدة : « يا لك من داهيـة ايها الشيطان الأعور ! ان حبائلك لا تخفى على ، فقد كنت تريد ، بل يسرك ، ان احترق بالنار ، حتى تغدو حرا طليقا تجرى وراء الفتيات ، ولا يرى أحد الجد العجوز الذى اشتعل رأسه شيبا يمرح ويلهو . أتظن اننى لا أعلم ماذا كنت تقول لحنة هذا المساء ؟ انى لأعلم كل شىء عن ذلك ، وليس خداعى بالأمر اليسير ، فما بالك اذا كان من يروم خداعى غرا أبله مثلك ، اننى لأتحلى بفضيلة الصبر ، فاذا نفد صبرى فلا تلومن الا نفسك ! » .

وما أن فرغت المرأة من قولها هذا حتى هزت قبضتها فى وجهه ، وسارت مهرولة تاركة الشيخ فى حيرة من أمره .

وقال الشيخ يحدث نفسه وهو يحك رأسه حكا قويا : « لا شك أن للشيطان يدا فى ذلك » .

واقبل عليه رجال الشرطة فى تلك اللحظة وصاحوا قائلين : « لقد قبضنا عليه ! » .

وسألهم الشيخ : « على من ؟ » .

« ذلك الشيطان الذى يرتدى جلد الماعز مقلوبا » .

فصاح الشيخ وهو يقبض على ذراع الأسير : « دعوه لى ! فلستم الا قوما مجانين ! وانما هذا الذى تمسكونه هو كالينيك الثمل ! » .

فأجاب الشرطة قائلين : « يا له من أمر عجيب ! لقد وقع الشيطان فى أيدينا أيها الشيخ الموقر ! فأقبل الفتيان اللاعين والتفوا بنا فى الزقاق ، واخذوا يرقصون ويقفزون ويجذبوننا من ثيابنا ويخرجون لنا السنتهم وينتزعونه من بين أيدينا ! لعنة الله عليه ! أما كيف وقعنا على هذا الغراب وضللنا عن الشيطان فعلم ذلك عند الله وحده!» .

فقال الشيخ : « بمقتضى السلطة المخولة لى وباسم المجتمع كله أصدر اليكم الأمر بأن تلقوا القبض على ذلك الوغد فى التو والساعة ، وعلى كل من تصادفونه فى الطريق ، وتأتوا بهم الى لأنظر فى أمرهم ! » .

فصاح بعضهم وهم يجثون على قدميه : « رحمـــاك ايها الشيخ الموقر ! وليتك رأيت وجوههم القبيحة ، لقد ولدنا وعمدنا ولكننا لم نر قط مثل هذه الوجوهالبشعة ، وليهلكنا الله ان كنا من الكاذبين ، وهذا الذى حدث لا ينجم عنه الا الشر أيها الشيخ الموقر ، وقد يوقع هؤلاء الفتية فى قلب الرجل الطيب منالرعب ما لاتستطيع اية امرأة عجوز أن تتعهد بشفائه منه » .

« الرعب حقا ! ترى ما الذى ترمون اليه ؟ اتعصون الأوامر ؟ انى لأحسب أنكم ضالعون معهم تماما ! اتشقون عصا الطاعة ؟ ما خطبكم ؟ وما معنى هذا ؟ اتعمدون الى الفتنة ؟ أنتم انفسكم .. لأرفعن أمركم الى المأمور ! فى التو والساعة ! أتسمعون ؟ فى التو والساعة ! عجلوا ، عجلوا ولتسابقوا الريح ! ولتعلمن اننى .. ولتعلمن أنكم .. » .

وهرولوا جميعا وقد ذهب كل منهم فى واد !

- ٥ -

العذراء الغريقة

كان المحرض على هذا الشغب كله يسير ببطء شطر البيت القديم وشطر البركة دون أن يزعجه الطراد أو تقلقه فرق البحث التى اطلقت فى كل اتجاه ، وما من حاجة تدعونا بعد الى القول بأن ذلك المحرض هو ليفكو ، وكان الفتى يمضى فى طريقه وقد فك أزرار جلد الماعز الذى كان يرتديه ، وامسك بقبعته والعرق يتصبب من وجهه . وكانت غابة اسفندان تبدو مهيبة جليلة يغشاها الظلام الكئيب ، ويلم بها فحسب لألاء من ضـوء القمر انتشر هنا وهناك ، وراحت البركة الساكنة تنضح ذلك الجوال المتعب بأنفـــاس رطيبة منعشة تغريه بالاخلاد الى ضفتها يستروح لحظة ، وكان السكون شاملا لا يتخلله الا تغريد البلابل فى الصميم من اعماق الغابة ، وسرعان ما ادرك الفتى نعاس لا يستطيع له دفعا ، فأغمض عينيه ، وبدأ الخدر يدب فى فى اعضائه الكليلة ، وثكل راسه ومال ، ثم هتف وهو يشد قامته ويفرك عينيه : « ويحى » لو اننى بقيت على هذه الحال لاستسلمت للنعاس فى مكانى هذا ! » .

وتلفت حوله فبدا له الليل اكثر بهاء واعظم جلالا ، وامتزج ضوء القمر لألاء فاتن غريب لم ير له الفتى من قبل مثيلا قط ، واكتسى كل شىء حوله بضباب فى لون الفضة ، وغمر الأرض جميعا عبير

نوار التفاح وشذا الأزهار ، ينفحها الليل بعطره ، واخذ الفتى ينظر مشدوها الى مياه البركة الساكنة التى انعكست عليها صورة لقصر الريفى لشريف الناحية مقلوبة ، وقد تجلى القصر فى حلة من المهابة والجلال ، واستبدلت فيه النـــــوافذ والأبواب الزجاجية المشرقة بالمصاريع الكئيبة ، وتألق بريق الأشياء المذهبـــــة من خلال الألواح الزجاجية الشفافة ، ثم خيل اليه أن نافذة من نوافذ القصر قد فتحت فحبس انفاسه وكف عن الحركة ، ولم يحول نظره عن البركة ، وبدا أنه يغوص الى أعماقها ، واذا به يرى أول ما يرى مرفقا أبيض يظهر من النافذة ، ثم راسا صغيرا فاتنا وعينين مشرقتين تتألقان فى رقة وعذوبة من خلال خصلات الشعر الكستنائية الداكنة ، واطل الراس من النافذة واستند على المرفق ، ثم رأى الفـادة تومىء ، برأسها ايماءة رقيقة .

لقد كانت تشير اليه ، وكانت تبتسم ، فأخذ قلبه ينبض ، وشرع الماء يهتز ، ثم أغلقت النافذة مرة اخرى ، وابتعد الفتى عن البركة فى بطء ، ونظر الى القصر ، فوجد المصاريع المظلمة مفتوحة ، والواح النوافذ الزجاجية تتألق فى ضوء القمر فقال يحدث نفسه : « عجبى للناس : لا يستطيع المرء أن يصدق من أقاويلهم الا القليل ، انه لقصر جديد غض الطلاء كأنما نفض الصانع منه اليدين بالأمس نفضا ، وبعض الناس يقيمون فيه » . واقترب من القصر فى سكون ، فلم يسمع فيه نأمة ولا حسا ، وارتفع صوت البلابل الرائع تشدو بأنغامها الشجية حتى اذا خفت صوتها وغاب فى غمرة من الوسن والاشتهاء ، علا حفيف الجنادب وطنينها ، وانبعث من هذا الطائر او ذاك من طيور المستنقع صـــوت عميق ، وهو يضرب بمنقاره الزلق صفحة المـاء العريضة ، وامتلأ قلب ليفكو بشعور عذب من الســـكينة والرحابة

والانطلاق ، فنغم بندورته وراح يعزف عليها ويشدو :

آه ، أيها القمر ، القمر الحبيب !
وانت ، يا نجمى المشرق الجبين !
تألقا واسكبا نوركما على الكوخ
ففيه تقيم فتاتى الجميلة !

وانفتحت النافذة فى بطء ، واطلت الفتاة التى رأى صورتهـا منعكسة على مياه البركة ، واخذت تنصت الى غنائه فى امعان ، وقد أوشكت أهدابها الطويلة ان تخفى عينيها ، واتشحت كلها بحلة بيضاء كالصفحة الناصعة أو كضوء القمر، اما جمالها فكان هو الروعة والفتنة والبهاء ! وضحكت الفتاة فجفل ليفكو .

وقالت فى صوت ناعم رقيق ، وهى تميل براسـها على جانب وتستر عينيها برموشها الوطف : « غن لى اغنيـة أيها القوزاقى الشاب ! » .

« اى اغنية تريدين ياغادتى الفاتنة ؟ » .

وسالت الدموع من عينيها وتحدرت فى بطء على وجهها الشاحب.

وقالت،وفى حديثها نبرات تبعث فى النفس من الأسى ما يعجزالقلم عن وصفه : « أيها الشاب ، أيها الشاب ، ابحث لى عن زوجة أبى ! ولن احمل لك حقدا ، بل سأجازيك ، فأجزل لك العطاء وأسخو فى الاغداق عليك ، ان لدى أكماما مطرزة بالحرير والمرجان والقلائد ، وسأهب لك حزاما مرصعا باللآلىء ، وعندى ذهب أيها الشاب ، فابحث لى عن زوجة أبى ! انها لساحرة رهيبة ، عكرت صفو حياتى ، فلم اعرف طعما للراحة . لقد كانت تعذبنى ، وتحملنى على العمل كأية فتاة قروية تافهة الشأن . انظـــر الى وجهى تر انها توسلت

بسحرها الدنس ، فسلبت منه ورد الخدين ، وانظر الى عنقى الأبيض تر الآثار الزرق القاتمة لبراثنها الفولاذية باقية لا تمحى ولا تزول ولا يرجى لى منها خلاص ! وانظر الى قدمى البيضاوين ، لقــــد طوح بهما النوى ، ولـــكنهما لم تسيرا على الأرض الرطبة والأشواك الحادة ! وانظر الى عينى ، أجل انظر الى عينى ! لقد طمس البكاء نورهما ، واظلمتهما غشاوة ! على بها أيها الشاب ، وهات لى زوجة أبى ! ..

وخفت صوتها الذى كان قد ارتفع حتى تلاشى فى غمرة السكون ، وانهمر الدمع على وجهها الشاحب ، فانفطر قلب الشاب أسى ورحمة، وقال فى لهجة تجيش بالعاطفة : « انى لمستعد أن افعل أى شىء من أجلك يا غادتى الفاتنة ! ولكن كيف أجدها ؟ وأين ؟ » .

فردت عليه مسرعة: « أنظر ، انظر ، انها هنا ، انها على الضفة تلعب مع أترابى العذارى بعض الألعاب ، وتستدفىء فى ضوء القمر ، ولكنها ماكرة داهية ، فقد اتخذت لنفسها صورة الغادة الفريقة ، ومع ذلك فانى أعلم ، بل أحس بأنها هنا ، تضيق على المسالك ، وتكتم منى الأنفاس ، وانا لا استطيع أن اسبح كالسمكة فى سهولة ويسر بسببها ،وانمــا أغوص واهبط الى القــــاع كالمفتاح ، فابحث عنها أيها الشاب ! » .

ونظر ليفكو شطر الضفة ، فرأى من خلال الضباب الفضى الرقيق عذارى ينطلقن خفيفات كالطيف فى قمصان تحاكى المرج فى بياضها الناصع تزينها زنابق من زهر الوادى ، وقد زهت أعناقهن بالقلائد الذهبية وعقود الخرز وقطع النقود ، ولكنهن كن شاحبات ، رقت اجسامهن كأنها قدت من سحابةشفافة ، حتى بدا أن ضوء القمر الفضى يتألق فى ثناياها ، ودنت العـذارى منه رويدا رويدا يغنين

ويرقصن ، فيصل غناؤهن الى سمعه .

ثم همسن : « هيا بنا نلعب لعبة الغراب وفراخ الدجاج » ، وكان صوتهن كصوت قبلة تطبعها شفتا النسيم الاثيرية على اغصان الغاب النابتة فى حافة النهر فى هداة الفجر .

« ولكن ، من تكون الغراب ؟ » .

واقترعن على ذلك ، وبرزت فتاة من صفوف العذارى ، وامعن ليفكو النظر فيها ، وكان وجهها وثوبها يحـــاكى وجوه الأخريات وثيابهن سواء بسواء ، على انه لاحظ انها لم تقبل على اداء دورها فى اللعبة ، واصطفت جماعة الفتيات فى دائرة ، وانطلقن مبتعدات عن العدو الكاسر .

وقالت الفتاة وقد ادركها التعب والاجهاد : « كلا ، فلست أريد أن اكون الغراب ، وانه ليحزننى ان اخطف الفراخ من امهن المسكينة ! »

فقال ليفكو بينه وبين نفسه : « لست انت هى الساحرة ! » .

« ومن تكون الغراب ؟ » . وتهيأت الفتيات للاقتراع مرة اخرى .

وابدت فتاة كانت تتوسط الجماعة استعدادها للقيام بهذا الدور قائلة : « لأكن انا الغراب ! » .

ونظر ليفكو فى وجهها بامعان ، وانطلقت الفتاة تتابع الحلقة فى جراة وسرعة ، واندفعت متنقلة من جانب الى جانب لتقبض على ضحيتها ، واذا بالفتى يلاحظ فجأة أن جسمها لا يبلغ فى شفافيته مبلغ الأخريات ، فقد كان يبدو للعين فى طوايا جسمها شيء معتم ، وانبعثت فى الجو صرخة على حين غرة ، فقد انقض الغراب على فتـــاة من الحلقة ، وامسك بها ، وخيل الى ليفكو ان الفتاة التى كانت تقوم بدور الغراب قد ابرزت مخالبها ، وتألق وجهها فجأة ببريق من الحقد والشر .

فقال وهو يشير بأصبعه اليهـا فجاة مرتدا الى شـــطر المنزل : « الساحرة ! » .

وضحكت الفتاة المطلة من النافذة ، وقادت الفتيات الآخريات وهن يصحن : الفتاة التى أدت دور الغراب .

« كيف أجزيك على ما فعلت أيها الشاب ؟ انى لأعلم انك لست فى حاجة الى الذهب ، وانما انت تحب حنة ، ويأبى ابوك الغليظ القلب أن يزوجك اياها ، على أنه لن يعترض بعد اليوم طريقك ، فهاك ! وخذ هذه الرسالة اليه » .

وامتدت يدها البيضاء ، وفاض وجهها بنور وبهاء عجيبين ، واطبقت يد الفتى على الرسالة ، ودق قلبه فى شوق واهتمام وقد غلبه القلق على أمره ، ثم ... استيقظ من نومه ! .

- ٦ -

اليقظـــــة

وتساءل ليفكو ، وهو ينهض من الرابية : « ترى هل كنت فى منام ؟ » ، ثم قال وهو يتلفت حوله : « لقد كان ذلك كله أقرب الى الحياة كأنما هو قد حدث فعلا ، يا للعجب ! » .

وتبين ليفكو اذ رأى القمر يعتلى كبد السماء فوق رأسه تماما ، ان الليل قد انتصف وكان السكون يخيم على أرجاء المكان جميعه ، وانبعث من البركة هواء بارد قر ، وقام القصر القديم بمصاريعه المغلقة امامه يجلله الحزن والأسى ، وقد لاح من الطحلب والأعشاب الطويلة أن أهله هجروه منذ أمد بعيد ، ثم بسط ليفكو يده التى كانت منقبضة فى احكام وهو مستسلم للنوم ، وصاح مذهولا اذ أحس بوجود الرسالة فيها ، وقال يحدث نفسه وهو يقلب الرسالة بين يديه ، ويتأملها من جميع نواحيها : « آه ! لو كنت أستطيع أن أقرأ ! » وفى تلك اللحظة سمع صوتا ينبعث من خلفه .

« لا تخافوا ، واقبضوا عليه فى الحال ! ما بالكم تخافون ؟ اننا اثنا عشر ، وانى لأراهنكم بأى شىء على أنه رجل وليس بشيطان ! » وهكذا أخذ شيخ القرية يصيح فى رفاقه ، وأحس ليفكو بأيد تمسك بتلابيبه ، وكان بعضها يرتعد خوفا وفزعا ، وقال الشيخ وهو يقبض عليه من بنيقة ثوبه : « اخلع هذا الثوب المخيف ياصديقى ! ودعك من السخرية

بالناس ! » ، ولكن الدهشة عقدت لسانه عندما وقع بصره عليه ، فصاح وهو يتراجع مذهولا ويرخى يديه : « ليفكو ولدى ! هل هو انت يابن الكلب ! آه ربيب الشيطان ! لقد كنت اتساءل : من يكون ذلك الوغد ؟ وأى شيطان تقمصه فراح يلعب تلك الألاعيب ؟ اذن فهذا كله من صنعك ! الا فليفص حلق أبيك بهلام لم يتم نضجه ! أيطيب لك ان تثير كل هذا الشغب فى الطـــريق وتؤلف هذه الأغانى ؟ آه يا ليفكو ! ما معنى هذا ؟ يبدو ان ظهرك يتحرق شوقا للعصا ! شدوا وثاقة ! » .

فقال ليفكو : « اصبر قليلايا ابت ! فقـد طلب منى أن اسلمك الرسالة » .

« ليس هذا بالوقت المناسب لتلقى الرسائل يابنى ! شدو وثاقه ! »

وقال الكاتب وهو يفض الرسالة : صبرا أيها الشيخ الموقر ، فانها بخط المأمور » .

« بخط المأمور ؟ » .

وردد الشرطة من غير وعى : « بخط المأمور ؟ أليس هذا بعجيب ؟ وى ! لقد ازداد الأمر غرابة على غرابة ! .

وقال ليفكو يحدث نفسه : « بخط المأمور ؟ » .

وقال الشيخ : « اتلها ، اتلها ! وقل لنا ماذا كتب المأمور ؟ .

وقال مقطر الخمور وهو يقبض على غليونه بأسنانه ويشعل عودا من الثقاب :

« لنسمع ما كتب المأمور » .

وتنحنح الكاتب وأخذ يقرأ :

« امر الى شيخ القرية بيفتوخ ماكو جونيشــكو : بلغنا أيها الغبى

العجوز انك انصرفت عن جمع الضرائب المتاخرة وحفظ النظام فى القرية ، وركبت مركب الحماقة وسلكت سلوكا مشينا .. » .

فقاطعه الشيخ قائلا : « اقسم بشرفى اننى لا استطيع ان اسمع كلمة مما تقرأ ! » .

وشرع الكاتب يقرأ من جديد :

« امر الى شيخ القرية بيفتوخ ماكو جونينكو : بلغنا ايها الغبى العجوز أنك ... » .

فصاح الشيخ : « كف ! كف ! ولا تقرأ هذا ، فاننى ــ وان كنت لم اسمعه ــ لأدرك انه ليس هو بيت القصيد ، اقرأ ما بعده ! » .

« ولذلك فانى آمركم بأن تعقد لابنك ليفكو ماكو جونينكو على حنة بتريشسينكو وهى فتاة قوزاقية من قريتكم ، كما آمركم باصلاح الجسور القائمة فى الطريق العام ، والا تعطو الخاصة من رجال المحاكم جياد القرويين بغير اذن منى ، ولو جاءوا اليكم رأسا من ديوان الحكومة ، واذا وجدت حين قدومى اليكم ان هذه الأوامر لم تنفذ عددتك مسئولا دون سواك عن ذلك ــ المأمور : الملازم المتقاعد كوزومادركاش دريشبانوفسكى .

وقال الشيخ وقد فغر فاه عجبا : « وى ! او سمعتم هذا ؟ سيكون الشيخ مسئولا عن ذلك كله ، ومن ثم وجب عليكم أن تطيعونى بلا قيد ولا شرط أن يحل بكم العقاب » ، ثم التفت الى ليفكو ومضى يقول : « اما انت ، فسأزوجك اياها ، ما دام المأمور قد قضى بذلك ، وان كنت لا ادرك كيف بلغه النبأ ، على انك ستذوق أولا طعم سوطى ! وانت تعرف السوط الجديد المعلق على الجدران قرب الأيقونات ، ولاستعين به غدا ، ولكن من اين لك بالرسالة ؟ » .

وعجب ليفكو مما آلت اليه الأمور ، على أنه كان من الحصافة بحيث أعد فى ذهنه جوابا عن هذا السؤال وان أخفى الحقيقة عن الوسيلة التى حصل بها على الرسالة .

ثم قال : « لقد كنت فى المدينة الليلة الماضية ولقيت المأمور وهو يهبط من عربته ، فلما علم أننى قادم من هذه القرية ناولنى الرسالة، وطلب منى أن انقل اليك يا أبت أنه سيمر بنا فى طريق عودته ويتناول العشاء معنا » .

« هل قال هذا ؟ » .

« أى نعم » .

قال الشيخ فى شىء من العزة والاعتداد بالنفس وهو يلتفت الى رفاقه : « هل سمعتم ؟ ان المأمور قادم بشخصه ليزور من هم على شاكلتنا ، أجل انه قادم الى ليتناول العشاء ، ورفع اصبعه ثم رفع راسه كأنمـــا كان ينصت الى شىء ، واردف يقول : « المأمور ـ اتسمعون ؟ المأمور ـ قادم ليتناول العشاء معى ، فما رايك ايها الكاتب المحترم ؟ وما رأيك انت أيها الصديق ؟ ان هذا لتكريم لا يمكن أن يستخف به المرء . أليس كذلك ؟ » .

وقال الكاتب : « لم يسبق لشيخ قرية فيما أذكر ان حظى بجلوس المأمور الى مائدته لتناول العشاء ! » .

وقال الشيخ فى لهجة الفخور المختال : « فرق بين شيخ وشيخ » ثم التوى فمه ، وانطلق من بين شـــفتيه شىء قريب من الضحكة الخشنة ، بل أقرب الى قصف الرعد يترامى اليك من بعيد ، ومضى يقول : « الا تظن أيها الكاتب المحترم انه ينبغى علينا اكراما لهذا الضيف الجليل المقام أن تصدر الأوامر بأن يساهم كل كوخ بدجاجة

على الاقل وشيء من الكتان ، ثم بشيء غير ذلك . فما رأيك ؟ .

« أجل ، هذا ما ينبغي لنا أيها الشيخ الموقر » .

وسأل ليفكو : « ومتى يكون الزفاف يا ابت ؟ » .

« الزفاف ؟ كان بودى أن اريك كيف يكون الزفاف ! ولكن ليأتين القس غدا اكراما لضيفنا الجليل المقام ويعقد قرانك ، لعنة الله عليك ! وليعلمن المأمور كيف تكون المبادرة الى أداء لواجب . والآن ايهـــا الفتيان ، لقد حان وقت النوم فعودوا الى دياركم ! فان ما حدث اليوم ليذكرنى بالأيام التى كنت فيها .. » وما ان نطق الشيخ بهـــذه الكلمات حتى القى بنظرة من تحت حاجبيه أفصحت عما ألفه من التباهى بخطر مركزه واعتزازه بنفسه .

وقال ليفـكو : « وليحدثنا الشيخ الآن كيف قـام بمهمة الدليل للقيصرة ! » ثم مضى مسرع الخطى ، وقلبه يطفح بشرا ميمما شطر الكوخ المألوف الذى تكتنفه اشجار الكرز القصيـرة العود ، وقال يحدث نفسه : « جعـــل الله ملكوت السموات بين الملائكة الأبرار فى العالم الآخر ! تالله لن اقص على احد نبأ تلك الأعجوبة التى حدثت الليلة ، وحسبى أن اقصها عليك أنت وحدك يا حنة ، ولنصلين أنا وأنت مبتهلين الى الله ان ينزل سكينة على تلك العذراء الغريقة المنكودة الطالع ! » .

واقترب من الكوخ فألفى نافذته مفتوحة ، وضوء القمر ينساب من خلالها ، فيغمر حنة وهى مستسلمة للكرى وقد توسدت ذراعها ، وتوردت وجنتاها بقبس ناعم رقيق ، وتحركت شفتاها تهتفان باسمه فى همس رقيق : « نامى يا ريحانة القلب ، واحلمى بخير ما فى هذا العالم ، ولو انه لا يفضل ما حل بنا من يقظة » .

ورسم عليها علامة الصليب ثم اغلق النافذة ومضى يسترق الخطى .

وما انقضى على ذلك بضع لحظات حتى كانت القرية كلها قد اخلدت للنوم ، ولم يبق الا القمر يسبح وحده متالقا رائع الحس فى فضـــاء السماء الأوكرانية الرائعة الذى لا يعرف نهايته الا الله ، أجل ، لقد كان يشرف على القرية من عليائه ذلك الجلال المعهود ، وكان الليل ، الليل القـــدسى ، يشيع فى مناكبه تلك العظمة المهيبة المأثورة . اما الأرض فلم تكن دون ذلك سناء وسنا وهى ترقد فى فيض من هـــذا الضوء الفضى البديع ، الا ان اهل القرية جميعـــا كانوا قـــد أسلموا جفونهم للنوم ، فلم يستمتع احد بهذا المنظر الجميل ، وخيم السكون الا من نباح الكلاب ينبعث من حين الى حين ، وظل كالينيك الثمل يترنح فى الطرقات الهاجعة وقتا طويلا يلتمس الطريق الى كوخه .

الخطاب الضائع



الخطاب الضائع

قصة حقيقية يرويها قندلفت

أتريدون منى اذن ان أروى لكم قصة عن جدى ؟ لا بأس ، وماذا على اذا رويت لكم قصة من قصصه ؟ آه من هاتيك الأيام الخالية ! ولشد ما يبهج القلب ويثلج الفؤاد ان يسمع المرء بما حدث فى هـذا العالم منذ أمد بعيـد تعجز الذاكرة عن رده الى موقعـه من السنة والشهر ! فاذا ما تناولت القصة قريبا من أقربائى سواء كان جدا أو جدا لجد ، خيل الى ــ وليدهمنى السعال وانا أترنم بنشيد القديسة فارفار الشهيدة لو كنت من الكاذبين ــ اننى أقوم بدوره جميعا فى تلك القصة كأنما تقمصت روح جدى الأكبر، أو أن روح هذا الجد قد أخذت تتولانى بألاعيبها .

ويحق لى أن أذكر فتياتنا ونساءنا الصغيرات هن أكثر الناس ازعاجا لى واقلاقا لراحتى ، ذلك انهن ما أن يلحمننى حتى يهتفن : « فوما جريجوريفتش فوما جريجوريفتش ! هلم ، وارو لنا قصـة مخيفة ! اروها لنا وعجل ! « ويمضين فى الحاحهن فلا أضن عليهن بطبيعة الحال ، ولكن ليتك ترى ما يقع لهن حين يأوين الى فراشهن ! وانى لأعلم وايم الحق ان كل واحدة منهن ترتجف أوصـالها تحت اللحاف كأنما ركبتها الحمى ، ويطيب لها أن تنطوى تحت جلد الماعز تخفى فيه راسها وجسمها جميعا ، ولو أن جرذا نبش فى قدر أو لمست

هى بقدمها محرك النار لأخرجها ذلك عن وعيها أو كاد ، ولكنها تعود فى اليوم التالى فتلح على الحاحا مزعجا لأقص عليها قصة مخيفة كأنما لم يصبها من قبل شيء ، فماذا عساى ان اروى لكم ؟ لا يحضرنى شيء فى هذه اللحظة ولكن صبرا ! لأقص عليكم كيف سخرت الساحرات بجدى ، ولا حيلة لى فى ان ابدأ قصتى برجاء أتوجه به اليكم ايهـــا الأصدقاء الأعزاء ، وهو الا تقاطعونى والا اختلطت القصة على اختلاطا لا يستسيغه أحد :

كان جدى ، ولا اخفيكم ، زعيما من زعماء القوزاق فى أيامه ، يعرف القرءة والكتابة ويعرف الى ذلك كيف يستعمل علامات الترقيم ، وكان اذا حل عيد من أعياد القديسين راح يتلو سفر اعمال الرسل فى صوت يتضاءل بجانبه صوت ابن اى قس من ابناء القسس اليوم ، وانكم لتعلمون من غير حاجة الى أن اقول لكم ما أقول ، أنكم لو جمعتم فى تلك الأيام كل من يعرف القراءة والكتابة فى باتورين بأسرها ما احتجتم الى قبعة أحدكم لوضعهم فيها ! ذلك أنهم لم يكونوا يتجاوزون جميعا حفنة اليد ، ولا عجب اذن فى أن جدى كان لا يلقاه أحد الا انحنى له ، وبالغ فى الانحناء أيضا .

وطرا على بال زعيمنا القوزاقى النبيل ذات يوم ان يبعث بخطاب الى القيصرة ، وارسل كاتب الفرقة فى تلك الأيام ــ وانا لا استطيع ان اذكر هل كان اسمه هو فيسكرياك او موتوزتشكا او جولوبوتسك او شيئا من هذا القبيل ؟ وكل ما أذكره انه كان اسما غريبا يبدأ بداية غريبة ــ اقول ان كاتب الفرقة فى تلك الأيام ارسل فى طلب جدى ، وانبأه ان الزعيم القوزاقى نفسه قد اختاره رسولا الى القيصرة ، ولم يك جدى يحب ان يضيع الوقت فى التأهب والاستعداد ، فخاط الخطاب فى قمة قبعته واخرج جواده وقبل زوجته وخنزيريه الرضيعين كما

الف ان يسمى ولديه ــ وكان ابى أحدهما ــ وأثار من الغبار فى ذلك اليوم ما يثيره خمسة عشر صبيا يلعبون لعبة صاخبة فى عرض الطريق، ووصل جدى الى كونوتوب فى صبيحة اليوم التالى قبل ان يصيح الديك للمرة الرابعة ، وكانت السوق وقتئذ قائمة فيها ، وقد امتلأت طرقاتها بزحمة من الجماهير تصيب راسك بالدوار اذا أمعنت النظر فيها ، الا ان الوقت كان مبكرا وقد تمـدد القوم جميعا على الأرض واستغرقوا فى النوم ، واستلقى فتى عربيد أحمر الانف كالدقناش (١) بجوار بقرة .

وراحت بائعة متجولة ، تبيع صوان الزناد ورزما من « الرش » الصغير الأزرق وحزما من التبغ ، تغط فى النوم حيث تهاوت على مقربة منه ، واستلقى رجل من النور تحت عربة ، واعتلى صاحب عربة من القوم عربة مملوءة بالسمك ، وانبطح مسكوفى متلح يحمل الأحزمة والقفازات فى عرض الطريق وقد برزت ساقاه . وصفوة القول ان المكان كان حافلا بسوقه من القوم على اختلاف الانواع والاشكال ، كما هى العادة فى الأسواق جميعا ، ووقف جدى يلقى نظرة حوله ، على حين دبت الحركة فى الخيام ، فأخـــذت اليهوديات يقعقعن بقواريرهن ، وارتفع الدخان حلقـــات هنا وهناك ، وغمرت رائحة الكعك الساخن المخيم كله ، وتذكر جدى أنه لم يك يحمل معه صوفانة أو تبغا ، فشرع يتجول فى السوق ، وما أن سار عشرين خطوة حتى لقى قوزاقيا من زابوروجى كالشعلة المرحة ، كما يستبين لأول وهلة من وجهه ! ونظرة واحدة الى سرواله الأحمر الوهاج ، وسترته الزرقاء الكاسية ، وحزامه المزدان بالأزهار الزاهية الألوان ، وسيفه المثبت الى جانبه ، وغليونه ذى السلسلة النحاسية الجميلة تسترسل حتى

(١) الدقناش . عصفور صدره أحمر .

تبلغ كعبيه ـ كافية للدلالة على انه يمثل قوزاق زابوروجي أصدق تمثيل . آه ! لقد كان هؤلاء القوزاق من أبرع الراقصين ! وحسب الواحد منهم أن ينهض ويتمطى ويربت شـــاربه الأنيق ، ويضرب كعبيه الحديدين كل بالآخر ـ ثم يبدأ ! ويا لها من بداية ! ان ساقيه لتدوران كأنهما المغزل فى يد امراة ، وتجذب أصابعه أوتار البندورة جميعا كالاعصار ، ثم يضع ذراعيه فى خاصرتيه ويشرع فى الرقص أو يأخذ فى انشاد أغنية تثير فى قلبه ما تثير ! أجل ، لقد ولت الأيام الخالية بحلوها وخيرها ، ولم تعد ترى اليوم زابوروجيا واحدا من هذا القبيل !

والتقى الرجلان ، وكان بينهما حديث ، ولا يطول الأمر باثنين حتى يصبحا من الأصدقاء ، وراحا يتحدثان ثم يتحدثان حتى نسى جدى كل ما يتصل برحلته ، وسكرا سكرة على مألوف القوم فى حفـلات الزفاف تقام قبل الصوم الكبير ، وانى لأحسب أنهما لم يـكفا عن الشراب الا بعد أن حل بهمـا التعب آخر الأمر وكلت أيديهمـا من تحطيم القدور والقاء النقود على الناس ، واى سوق تدوم الى ما شاء الله ؟ وهكذا اتفق الصديقان الجديدان على أن الا يفترقان وأن يمضيا معا فى رحلتهما . وكان المساء قد أوشك أن يحل عندما ركبا جواديهما وخرجا فى العراء ، وغربت الشمس فلم يبق فى موضعهما الا خيوط حمر تتوهج هنا وهناك فى السماء ، وكان الريف يزهو بالحقـول وقد اختلفت الوانها ، فبدت أشبه بالنقبات المبرقشة ترتديها فتياتنا الكحيلات العيون ايام الراحة .

وانطلق لسان القوزاقى بالحديث انطلاق من اصابته جنة مما حمل أبى وفتى آخر خفيف الروح كان قد لحق بهما على الظن بأن الرجل قد ركبه الشيطان . وتساءلا فى دهشة : من اين له بكل هذا الحديث

الذى حوى من اعاجيب الحكايات والقصص ما كاد ينشق له جنبا جدى من الضحك ؟ على أن الظلام اخذ يشتد كلما أوغلوا فى السير ، وأخذ الحديث المرح يزداد هلهلة وتفككا ، والتزم راوينا الصمت آخر الأمر ، وكان يجفل اذا أحس بأقل حفيف .

فقالا له : « واها لك ايها الجار ! لقد بدات تومىء فى جد ووقار وانك لتتمنى الآن أن تكون فى دارك مخلدا الى أريكة الموقد ! » .

فقال فجاة وهو يلتفت اليهما ويحدق فيهما بنظراته : « ما بى من حاجة الى اخفاء الأمر عنكما ، أو تعلمان أننى قد بعت روحى للشيطان منذ أمد بعيد ؟ » .

« كأنما جئت بنبأ جديد لم يسمع به احد من قبل ! ومن ذا الذى لم يعامل الشيطان فى يومه ؟ وهذا هو السر فى المثل الذى يقول : « لتجرعن كأس السرور حتى الثمالة » .

فقال وهو يشد بيده على ايديهما : « آه ياصاحبى ! لقد كنت أحب أن اجرع كأس السرور ، ولكن ساعتى الأخيرة سوف تحل هذه الليلة ، ولن انسى صداقتكما ما حييت ! » .

وما ضر لو ساعد المرء اخاه اذا نزل به مثل هذا البلاء ؟ واقسم جدى لتوه انه لخير عنده أن تنزع قنزعته عن جلد رأسه من أن يسمح للشيطان بأن يتشمم بأنفه الذى يشبه انف الكلب نفسا مسيحية .

ولعل أصحابنا القوزاق كانوا خليقين بأن يمتطوا صهوات جيادهم ويمضوا فى طريقهم لو لم يغش السحاب رقعة السماء جميعا كأنه نسيج اسود من غزل البيوت ، أو لم يضرب لونها الى الظلمة الحالكة كأنما غطاها جلد الماعز ، وكان ينبعث على البعد ضوء يتلألأ ،

واحست الجياد بوجود حظيرة قريبة ، فأسرعت الخطى وهى ترهف آذانها وتحملق فى الظلام ، ولاح الضوء كأنه يتطـــاير طيرانا لملاقاة القوزاق الثلاثة ، ورأوا أمامهم حانة تميل على جانب كأنها فلاحة تسير فى طريق عودتها الى دارها من حفلة عماد مرحة ، ولم تكن الحانات فى تلك الأيام كما هى عليه اليوم ، فقد كانت أضيق من أن تتسع لرجل طيب يدور أو يرقص رقصة الهوباك ، أو يجد حقا مكانا يرقد فيه لو قد حدث أن الخمر شعشعت فى رأسه وأخـــذت ساقاه ترسم حلقات على أديم الأرض ، وكان فناء الحانة قد حفل بعربات الحوذية وازدحمت جنباته جميعا ، وكان الرجال يرقدون تحت السقائف وفى المذاود ومخازن الحبوب ، يغطون فى نومهم بين متربع ومستلق الا صاحب الحانة ، فقد كان يقظان يجلس أمام مصباحه الصغير الذى اتخذه من قدر ، يحز فى عصاه حزوزا يسجل بهـــــا عدد ما شربه الحوذية من أثمان الجالونات وأرباعها .

وطلب جدى ثلث سطل له ولصاحبه ، ثم يمم شطر مخزن الحبوب، واستلقى الرجال الثلاثة على الأرض جنبا الى جنب ، وما أن هم جدى بالالتفاف حتى كان صاحباه قد استغرقا فى النوم استغراقا ، وأيقظ جدى القوزاقى الثالث الذى كان قد لحق بهمـــا وذكره بالعهد الذى عاهدا عليه رفيقهما ، وجلس الرجل وفرك عينيه ثم أخلد للنوم مرة اخرى ، ولم يجد جدى فى الأمر حيلة ، فاضطر الى القيام بالحراسة وحده ، وأراد أن يدفع الكرى عن عينيه بأى وجــه فأخذ يتفحص العربات جميعا ويلقى نظرة على الجياد ، ثم أشعل غليونه وعاد أدراجه.

وجلس مرة أخرى بجوار صاحبيه ، وشمل السكون كل شىء حتى لقد بدا انه ما من ذبابة واحدة كانت تتحرك ، ثم خيل اليه أن شيئا أصهب اللون قد دفع بقرونه من تحت عربة قريبة منه ، على أن عينيه

اخذتا تطوفان ، فحمله ذلك على أن يفركهما كل لحظة بقبضة يده وان يعمل جاهدا على أن تظلا مفتوحتين مستعينا بما بقى من الفودكا، وكانت الغشاوة لا تنجاب عنهما حتى يختفى كل شيء أمام ناظريه . وظهر الشبح مرة اخرى بعد ذلك بقليل من تحت العربة ، وفتح جدى عينيه بقدر ما وسعه ، ولكن النعاس الملعون اغطش كل شيء ، ودب الخدر فى يديه ، ومال راسه على جانب ، واستغرق فى نوم هادىء كأنه أصبح فى عداد الأموات ، ونام جدى ساعات وساعات ، ولم ينتصب واقفا على قدميه الا عندما اخـــذت الشمس تلسع راسه الحليق ، وتمطى مرات ومرات وحك ظهره ، ثم لاحظ أنه لم يبق فى الفناء ذلك العدد الكبير من العربات الذى كان فيه بالأمس ، ذلك أن الحوذية كانوا قد رحلوا بلا ريب قبل طلوع الفجر ، وبحث عن صـــاحبيه ، فتبين له ان القـــوزاقى لا يزال يغط فى نومه ، أما الزابوروجاوى فكان قد رحل ، ولم يستطع أحد أن ينبئه بشىء عن ذلك الرجل ، ولم يجد فى مكانه المعهود اثرا ينم عليه الا معطفه .

وتملك جدى الرعب واختلط عليه الامر،ومضى يبحث عن الجوادين فلم يجد اثرا لجواده أو جـواد الزابوروجاوى ! ترى ما السر فى ذلك ؟ وهب أن الشيطان قد اخذ الزابوروجاوى ، فمن يكون ذلك الذى اخذ الجوادين ؟ وفكر جدى فى الامر مليا وخرج من ذلك بأن الشيطان قد أقبل على الأرجح سيرا على قدميه ، فلما أنس بعـد الشقة بينه وبين الجحيم استولى على جواده هو ، واشتد اضطراب جدى لأنه لم يف بما عاهد عليه القوزاقى .

وقال يحدث نفسه : « ليس فى الأمر حيلة ، ولأمضين سيرا على على قدمى ، وارجو ان يصادفنى تاجر خيل فى طريق عودته من السوق فتتهيأ لى الفرصة لشراء جواد » . ولكنه ما ان شرع يبحث عن قبعته

حتى وجد أنها قد اختفت أيضا ، واخذ يفرك يديه كل بالاخرى ، اذ تذكر انه كان فى اليوم السابق قد بادل الزابوروجاوى قبعته الى حين ، وهيهات ان يكون قد سرق قبعته الا الشيطان نفسه ! يا له من رسول أمين ! ويا للمهمة الجليلة التى اضطلع بها لتسليم ما جعله فيمـا أحسب يعطس فى الجحيم مرة فى اثر مرة ، الا ان السباب لا يفيد كثيرا .

وعجز جدى عن الاهتداء الى اية خطة على الرغم من انه اخذ يحك راسه كثيرا ، وسقط فى يده وتحير : ماذا يفعل ؟ورجع الى القوم يلتمس عندهم الراى ، وجمع من كان يلوذ بالحانة فى ذلك الوقت من أهل الصلاح ، اجل جمع الحوذية وعابرى الطريق من البسطاء ، وحدثهم بما كان من امره وما نزل به من كرب ، وفكر الحوذية طويلا واسندوا ذقونهم على اسواطهم ثم هزوا رءوسهم وقالوا انهم لم يسمعوا قط فى العالم المسيحى بعجيبة كهذه يختلس فيها الشيطان خطاب زعيم من زعماء القوزاق ، وزاد آخرون بأنه اذا سرق الشـيطان او اى شخص من المسكوف شيئا جاز لك أن تسترده باطـلاق صفارة من فمك ، ولم يشذ عن الجماعة الا صاحب الحانة ، فقد جلس ملتزما الصمت فى ركن الغرفة ، فقصد جدى اليه ، ذلك ان الرجل اذا امسك عن الكلام كان حكيما ، على أن صاحب الحانة كان يتحاشى الكلام ، ولو لم يخرج جدى من جيبه خمس قطع ذهبية لظل الرجل على الأرجح واقفا امامه لا ينال منه منالا .

وقال صاحب الحانة وهو ينتحى به جانبا : « لأرشدنك الى طريقة تجد بها الخطاب » ، وانزاح حمل ثقيـل عن صدر جدى ، ومضى صاحب الحانة يقول : « فانى ألمح فى عينيك انك قوزاقى أصيل ولست غرا أبله ،فالق الى بسمعك ! ان ثمة منعطفا فى الغابة بالقرب

من هذه الحانة ، وما عليك الا أن تتأهب للرحيل اذا أخذ الليل يرخى سدوده ، ولتجدن فى الغابة قوما من النور يخرجون من أوكارهم لطرق الحديد فى الليالى التى لا يخرج فيها الى العراء الا الساحرات يسعين على محركات النار ، وخير لك الا تسأل عن حرفتهم الحقيقية ، ولتسمعن طرقا كثيرا فى الغابة ، فلا تمض الى حيث تسمع الطرق ، ولتجدن أيضا دربا صغيرا يواجهك قرب شجرة محروقة فاسلك هذا الدرب ، وواصل السير ، وقد تخدش الأشواك قدميك ، وتسد عليك شجيرات البندق الكثيفة مسالك الطريق ، فلا تكف عن السير وامض فى سبيلك حتى تبلغ جدول ماء صغيرا ، تجد هناك بغيتك ، ولكن لا تنس أن تضع فى جيوبك ما صنعت من اجله الجيوب ، فانك تعلم أن الشياطين والأناسى على السواء يطيب لهم ذلك » .

وما أن فرغ صاحب الحانة من قوله هذا حتى مضى الى الركن الذى كان يأوى اليه ، وابى ان يزيد .

وكان جدى رجلا جرىء القلب لا يهاب شيئا ، اذا صادف ذئبا لا يتردد فى أن يمسكه من ذيله ، ولو اعمل قبضة يده بين القوزاق لسقطوا على الأرض سقوط الكمثرى من الشجر فى اعداد غفيرة . على انه أحس بالخوف يدب فى قلبه عندما دخل الغابة فى تلك الليلة الحالكة التى غابت نجومها عن الأنظار فلم يبد منها نجم واحد ، لقد كان الظلام سائدا والهدوء شاملا كأنك فى قبو من أقبية الخمر ، وانبعثت ريح باردة من أجواز الفضاء تعصف بقمم الأشجار ، فأخذت تتمايل على غير هدى كأنها رءوس القوزاق عبوا من الخمر حتى ثملوا ، وراحت اوراقها تهمس بأغنية نشوى تهتز اعطافها بفعل الراح ، ثم هب اعصار بارد جعل جدى يفكر فى جلد ماعز ، ولم يلبث ان سمع صوتا كأنه ينبعث من مائة مطرقة اخذت تدق فى الغابة

محدثة من الدوى والضجيج ما يصيب الأذن بالطنين .

وغمر الغابة لحظة ضوء لا تعهده الا فى بروق الصيف ، ولمح جدى دربا صغيرا يلتف بين الأشجار القصيرة العود فى هذا المكان ، وهنا وجد الشجرة المحروقة ، وهنا وجد شجيرات الحسك ! أجل ، لقد وجد كل شيء على الحال التى وصفت له ، اذن فقد صدق صاحب الحانة ولم يكذبه ! على ان نفسه لم تطلب لما وجد وهو يشق طريقه شقا خلال الشجيرات الشائكة ، ذلك انه لم يعرف فيما مر من حياته قط أن تلك الغصون والأشواك الملونة تصيب المرء بمثل هذه الخدوش الأليمة . وكان يحس فى كل خطوة يخطوها بعذاب يوشك ان يبعثه على البكاء . وسار رويدا رويدا حتى خرج الى ممر ، ورأى على قدر ما امتد بصره أن الأشجار اخذت تتفرق ويزداد ما بينها اتساعا ، وكلما مضى فى سيره صادف أشجارا تزيد فى ضخامتها من كل ما رآه فيما وراء بولندا ، ثم وقع نظره فجأة على جدول صغير يتألق بين الأشجار ، أسود كالصلب المقسى ، ووقف جدى وقتا طويلا على ضفة الجدول يتلفت حوله ، ولاح من الضفة الأخرى وميض يتلألأ لحظة ثم يوشك ان ينطفىء ، ثم يعود فينعكس على صفحة الجدول وينتفض انتفاض البولندى فى أيدى القوازق ، ثم ها هو ذا الجسر الصغير قد تكشف ! .

« انى لأحسب ان هذا الجسر لا تستطيع عبوره الا عربة الشيطان نفسه ! » .

على ان جدى تقدم غير هياب ولا وجل ، وبلغ الضفة الأخرى للجدول قبل أن تتاح الفرصة لأى مخلوق آخر ان يخرج صندوق سعوطه المصنوع من قرن الحيوان ويصيب منه شيئا . ولم يلبث أن رأى فى هذه اللحظة فحسب قوما يجلسون حول نار مشتعلة ، أجل

راى ويا لهول ما راى ! راى سحنا بديعة كسحن الخنازير لو قد رآها فى اى وقت آخر لبذل - علم الله - كل مرتخص وغال لتحاشيها ، ولكنه لم يجد بدا من التودد الى هؤلاء القوم ، وهكذا حنى جدى هامته ، وبالغ فى ذلك مبالغة وقال هاتفا : « كان الله فى عونكم ايها القوم الصالحون ! » .

ولم يهتز راس منهم بايماءة واحدة ، بل جلسوا سكونا كأن على رءوسهم الطير ، وظلوا يلقون بشىء فى النار ، وراى جدى مكانا خاليا فجلس دون أن يحفل بالأمر كثيرا ، ولم تنطق وجوه الخنازير البديعة بحرف ، ولم ينبس جدى أيضا ببنت شفة ، وأخلد الجمع الى الصمت طويلا ، وبدا السأم يدرك جدى ، فراح يضرب بيده فى جيبه واخرج غليونه وتلفت حوله ، ولكن أحدا منهم لم يرمقه بنظرة .

« افلا تتفضلون على أيها السادة الموقرون ؟ فانى والحق يقال ، اذا سمحتم لى - وكان جدى قد طوف بالعالم كثيرا وعرف كيف يصوغ الخطاب ولم يكن يعوزه اللفظ وان مثل فى حضرة القيصر - أجل اذا سمحتم لى ، دون ان أبخس نفسى حقها او أخرج عن حدود الأدب معكم ، لأود أن أقول : ان عندى غليونا لا اجد ما أشعله به » .

وامسك القوم عن الكلام هذه المرة ايضا ، ولم يجب أحدهم بحرف ، الا ان واحدا من ذوى السحن الخنزيرية قذف جمرة حامية فى وجه جدى مباشرة لو لم يحد عنها قليلا لاودت بعين من عينيه الى ما شاء الله ، وتبين له آخر الأمر أن الوقت يمر هباء ، فصح عزمه على ان يقص عليهم قصته ، سواء استمع له هؤلاء القوم الأنجاس او لم يستمعوا . وارهف القوم آذانهم ومدوا مخالبهم ، وادرك جدى ما يريدون ، فأخرج كل ما كان يحمل من مال والقى

به اليهم كانهم الكلاب ، وما أن القى بما معه حتى اضطرب كل شيء امامه ، فاهتزت الأرض ، ووجد نفسه فجأة فيما يشبه الجحيم ، ولم يستطع جدى قط أن يطل هذا الجزء من قصته .

وتأوه جدى اذ القى بنظرة فاحصة حوله ثم هتف . « رحماك ربى ! » تالله ما كان أبشع من تلك الوحوش ! فقد كان كل وجه أقبح من اخيه ؛ وكانت الساحرات كثيرات كثرة شقف الجليد تتساقط أحيانا فى عيد الميلاد ، وقد تأنقن جميعا فى لباسهن وصبغن أنفسهم بالطلاء كما تفعل الحســـــان اذا أممن سوقا من الأسواق ، ورحن يرقصن ضربا من رقصة الهوباك على طريقة الشياطين كأنما لعبت الخمر برءوسهن . اما الغبار الذى أثرنه فحدث عنه ولا حرج ! .

واما القفزات التى اخذت هؤلاء الساحرات من بنات الشيطان يضربن بها فى أجواز الفضاء فقد كانت خليقة بأن ينتفض لها قلب أى مسيحى ! وفزع جدى الا انه اغرق فى الضحك اذ رأى الشياطين بوجوههم الشبيهة بوجوه الـــكلاب وسيقانهم التى تحاكى المغازل ، يهزون ذيولهم ويلفون حول الساحرات ويدورون كما يفعل فتياننا بالفتيات الجميلات . واخذ الموسيقيون يضربون خدودهم بقبضات أيديهم كأنها الطبول ويصفرون بأنوفهم كأنها الأبواق ، وما أن رأوا جدى حتى تكأكئوا عليه ، وامتدت أعنـــاق وجوه الخنازير ووجوه الكلاب ووجوه الماعز ووجوه الحبارى ووجوه الخيول ، أجل امتدت أعناقها جميعا محاولة ان تقبله ، ولم يسع جدى الا أن يبصق ، وقد نال منه الاشمئزاز مناله ، ثم امسكوا به آخر الأمر وأجلسوه على مائدة طويلة لعلها تبلغ فى الطول مبلغ الطريق من كونوتوب الى باتورين .

وقال جدى يحدث نفسه ، اذ رأى على المائدة لحم الخنزير والمقانق والبصل المفروم بالكرنب وغير ذلك من الأطايب الكثيرة : « لا بأس

بهذا على الاطلاق ! وانى لأحسب ان هؤلاء الطغام من أهل الجحيم لا يصومون الفرض ! .

ولا اخفى عليكم ان جدى لم يكن ليدع الفرصة تفوته اذا تهيأت له اللقمة الطيبة ، اجل لقد كان هذا الجد العزيز يستطيب الطعـــام ويتلذذ به ، فلم يضيع وقتا فى الكلام ، بل جذب اليه طاسا من شرائح دهن الخنزير وفخذ خنزير مدخن ، وتناول شوكة لا تقل كثيرا عن تلك التى يذرى بها الفلاح التبن ، وانتقى أكبر قطعة ووضعها على كسرة خبز ، ولكن يا للعجب ! لقد اندست هذه القطعة فى فم آخر بجوار اذنه تماما .

وانبعث بلا ريب صوت فكى فتى آخر يمضغها وتلوكها اسنانه مقعقعة قعقعة تصل الى اذن كل من كان يجلس الى المائدة ، ولم يبال جدى ما حدث ، بل تناول قطعة اخرى وبدا انه قد امسك بها بين شفتيه ، ولكنه لم يفلح هذه المرة ايضا فى أن يدفع بها الى حلقه ، وحاول مرة ثالثة فأخفق ايضا ، واستشاط جدى غضبا ، ونسى ما كان فيه من رعب ، كما نسى القوم الذين وقع بين براثنهم ، وهرع الى الساحرات « أتحاولن ان تهزأن بى يا سليلات هيرودس ؟ تالله ان لم ترددن الى قبعتى القوزاقية فى التو والساعة انى برىء من كاثوليكيتى ان لم الو خطومكن الخنزيرية حتى تبلغ قفاكن ! .

وما ان القى بهذه الكلمة الأخيرة حتى كشرت الوحوش عن انيابها ، واطلقت ضحكة مدوية اشاعت الرعدة فى اوصال جدى .

وصاحت ساحرة منهن خيل الى جدى انها زعيمتهن ، فقد كانت اكثرهن جمالا او تكاد . « لا بأس ! ولن نرد اليك قبعتك الا اذا فزت بها منا فى ثلاثة أدوار من لعبة « العبيط » ! .

فكيف يكون موقفه ؟ أيصح لقوزاقى أن يقعد ويلعب لعبة «العبيط» مع بعض النساء ؟ وظل جدى يرفض اللعب ثم يرفض ولكنه جلس آخر الأمر ، وجاءت الساحرات بأوراق اللعب ، فكانت حزمة يغشاها الشحم على غرار تلك التى تستعملها بنات القسس فحسب ليكشفن عما يضمره لهن الغيب من أزواج .

وصاحت به الساحرة مرة اخرى فى صوت كالنباح قائلة : « استمع الى ! لتكونن القبعة من نصيبك اذا فزت فى دور واحدا ، أما اذا خرجت من الأدوار الثلاثة وكان من نصيبك « العبيط » فلن ترى قبعتك ومن يدرى لعلك لا ترى العالم مرة اخرى ؟ » .

« هلمى ، وزعى الورق أيتها الساحرة الحيزبون ! وليكن مايكون!» .

ووزع الورق ، وتناول جدى نصيبه منه ، فألفاه كله تافها لا غناء فيه ، فأشاح عنه اشمزازا ، وكأنما أراد القدر أن يسخر منه فلم يواته بورقة واحدة رابحة ، أما بقية الورق الذى وقع فى يده فكان أعلى ورقة فيه هى « العشرة » ولم يكن معه ورقة واحدة من ورقات « الاثنين » وظلت الساحرة تدفع اليه بالورقات خمسا خمسا ، وشاء القدر أن يكون جدى فى هذا الدور هو « العبيط » وما أن خرج من الدور بهذا النصيب حتى ارتفعت أصوات الوحوش من كل جانب تصهل وتنبح وتقبع وتنادى هاتفة « عبيط ! عبيط ! عبيط ! » .

فصاح جدى وقد سد اذنيه بأصابعه : « فلتصيحوا حتى تنشق حناجركم ايها الشياطين ! » .

وقال بينه وبين نفسه : « ان الساحرة لم تكن أمينة فى اللعب ، ولأوزعن الورق بنفسى » ، ووزع الورق ، وكشف عن الورقة الرابعة ثم القى نظرة على نصيبه من الورق ، فوجده مواتيا يشتمل على بعض

أوراق رابحة ، وبدت الأمور فى البداية على خير ما يمكن أن تكون حتى وضعت الساحرة على الأرض خمس ورقات بينها بعض الملوك .

ولم يك فى يد جدى الا أوراق رابحة فضارب بها فى سرعة البرق كل الملوك .

« ها ! ليس هذا من شيمة القوزاق ! ما الذى تضاربها به أيها الجار ؟ » .

« بماذا ؟ بالأوراق الرابحة ! » .

« قد تكون فى اعتقادك أوراقا رابحة ، أما فى اعتقادنا فلا ! » .

يا للعجب ! لقد كان نصيبه من الورق من نوع آخر فعلا ! ترى أى حيلة من حيل الشياطين هذه ؟ وخرج من الدور « العبيط » للمرة الثانية ، وراح الشياطين يشقون حناجرهم مرة أخرى صائحين : « عبيط ! عبيط ! » ومضوا فى ذلك حتى اهتزت المائدة وراح الورق يتراقص عليها .

واستشاط جدى غضبا ، ووزع الورق للمرة الأخيرة ، ووافاه الحظ هذه المرة ايضا بورق موات ، وعادت الساحرة فوضعت على الأرض خمس ورقات فضاربها جدى ، وأخذ من الورق عددا من الأوراق التى تربح .

وصاح : « ورقة رابحة ! » والقى ورقة على المائدة فى قوة جعلتها تنثنى وتتغضن .

وغطتها الساحرة بثمانى ورقات من نوع آخر دون أن تنبس ببنت شفة .

« بماذا تضربين ورقتى الرابحة ايتها الشيطانة الحيزبون ؟ » .

ورفعت الساحرة ورقتها فاذا تحتها ست ورقات من نوع عادى .

وقال جدى : « يا للحيل الشيطانية ! » ، وضاق صدره ، فضرب

المائدة بقبضة يده بأقصى ما يستطيع من قوة ، ومن حسن التوفيق أن الورق الذى مع الساحرة كان تافها لا غناء فيه ، وشاء الحظ أن يكون مع جدى فى هذه المرة ورقات من ذوات « الاثنين » ، وشرع يسحب الورق من الرصة ، فألقاه عديم الجدوى . اجل لقد بلغ من تفاهة الورق الذى كان من نصيب جدى ان يئس الرجل فسقطت يده الى جنبيه ، ولم يبق فى الرصة ورقة واحدة ، فاضطر أن يلعب بأية ورقة فى يده ، وكانت هى ورقة الست ! ولم تجد الساحرة بدا من اخذها ، ذلك انه لم يبق معها ورقة يمكن أن تضاربه بها « وى ، وى ! ما هذا ؟ لا شك ان فى الأمر شيئا ! » ثم رسم جدى اشارة الصليب خفية فوق الورق من تحت المائدة ، ولكن اى شىء وجد ! لقد وجد فى يده الآس والملك والغلام من الاوراق التى تربح ، ولكن الورقة التى القى بها لتوه هى ورقة الست بل ورقة الملكة ! » .

« يا لغباوتى ! ملك الأوراق الرابحة ! اذن فقد اخذته انت ؟ يا سليلة القطط ! اتحبين ان تأخذى الآس ايضا ؟ الآس ! والغلام ! » .

وساد الجميع هرج ومرج ، وتشنجت الساحرة ، وطارت القبعة فجاة ، واندفعت بقوة وارتطمت هى ووجه جدى .

وصاح جدى مستجمعا أطراف شجاعته ، ووضع القبعة على راسه « لا يكفينى هذا ! وتالله ان لم أر جوادى الأصيل يقف أمامى فى التو واللحظة لأرسمن عليكم جميعا علامة الصليب المقدس ، أو تصعقنى الصاعقة فى هذا المكان الدنس ! » ، ورفع يده لينجز وعده واذا بعظام جواده تقعقع أمامه ! .

« هاك جوادك » .

وانفجر الرجل المسكين باكيا كالطفل وهو ينظر الى هذه العظام ، وانفطر قلبه اسى على رفيقه العزيز ثم قال : « اعطونى جوادا من أى

نوع كان اخرج به من وكركم ! » ، وفرقع شيطان بسوط ، فبرز من تحته جواد كالشهاب ، وحلق به جدى فى الهواء كأنه الطير .

وتملكه الفزع عندما أخذ الجواد يطوى به الأخاديد والمستنقعات طيا غير عابىء ، بصياح أو بلجام ، وكانت الأماكن والبقاع التى اجتازها مخوفة مفزعة بعثت الرعدة فى أوصاله وهو يذكرها فى سياق قصته ، والقى الرجل بنظره الى ما تحته مرة فازداد خوفا ورعبا ، فقد ابصر هوة ، بل هاوية مخيفة ! الا ان الجواد الشيطانى لم يلق اليها بالا ، بل قفز من فوقها لساعته ، وحاول جدى أن يوقف الجواد ولكنه لم يستطع ، وطار الجواد فوق أصول الأشجار والاكام ، ثم انكفأ على وجهه فى هوة من الأرض ، وضرب أسفل الهوة بقوة حتى بدا أنه قد أسلم الروح ، على ان جدى عجز عن ان يتذكر شيئا مما وقع له ، وما أن افاق قليلا حتى تلفت حوله ، فوجد النهار يعلوه ، ثم لمح بعض الأماكن المألوفة ، فتبين له انه ملقى على سقف كوخه .

ورسم جدى اشارة الصليب وهو يهبط من السقف ، الا ما اغرب الحيل التى يأتى بها الشيطان ! لعنة الله عليه ! وما اعجب ما يصادف الانسان من امور ! ونظر الى يديه فاذا بهما مخضبتان بالدم ، ثم نظر فى برميل من الماء فاذا بوجهه هو هو لم يتغير ، واغتسل جيدا خشية ان يفزع الأطفال منه ثم ولج الكوخ فى هدوء ، ويا للمنظر الغريب الذى وقع عليه بصره ! ذلك انه راى الأطفال يتراجعون لائذين فى رعب ، ثم هتفوا : « « انظر ! انظر ان امنا تقفز كالمجنونة ! » ،والحق ان زوجته كانت تغط فى نومها وهى جالسة أمام مشط الصوف وفى يدها مغزلها ، وراحت فى نومها تقفز صاعدة هابطة على الأريكة فتناول جدى يدها برفق وأيقظها قائلا : « طاب صباحك يا زوجتى ، هل أنت بخير ؟ » ، وحملقت فيه المرأة طويلا ، ثم عرفته آخر الأمر

وقالت له : انها رات فى نومها ان الموقد كان يمتطى صهوة جواد يدور به حول الكوخ ، ويخرج منه بمجرفة القدور والبراميل وغير ذلك مما لا يعلمه الا الله .

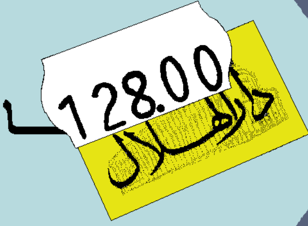
فقال جدى : « لا بأس عليك ، فقد رايت هذه الرؤيا فى منامك ، أما انا فرايتها فى يقظتى ، ولا ريب ان الأمر يقتضبنى ان أسعى الى مباركة كوخنا ، ولكننى لا أستطيع ان اطيل المكوث هنا بعد » .

واستراح جدى قليلا بعد أن فرغ من قوله هذا ، ثم التمس جوادا من بعض الناس ، ومضى فى رحلته يواصل الليل بالنهار حتى بلغ غايته، وسلم القيصرة نفسها الخطاب ، وهنالك شاهد جدى امورا غاية فى العجب حتى انه أصبح بعد ذلك بوقت طويل لا يمل من قص قصتها علينا ، وراح يروى لنا كيف جاءوا به الى القصر ، وكيف وجده مرتفعا ارتفاعا عجيبا لا تبلغ اليه وان وضعت عشرة أكواخ بعضها فوق بعض ، وكيف نظر فى غرفة فلم يجد القيصرة فيها ، ثم مد بصره فى غرفة ثانية فثالثة بل فى رابعة فلم يفز بطائل ، ثم وجدها فى الغرفة الخامسة تجلس وعلى راسها تاجها الذهبى ، وترتدى ثوبا رماديا جديدا وحذاء احمر ، وتأكل لقيمات القاضى الذهبية ، وكيف انها أصدرت الأمر بملء قبعة الى الحافة بالأوراق المالية الزرق من ذات خمسة الروبلات ، وكيف وكيف .. ولكننى لا استطيع أن اذكر ذلك كله .

اما عن معاشرة جدى للعفاريت فقد نسى الرجل ذلك الأمر وانقطع تفكيره فيه انقطاعا تاما . واذا اتفق ان ذكره أحد بما وقع له لزم الصمت كأن الأمر لا يعنيه ، والحق أنه كان من اشق الأمور أن يقنعه مقنع بأن يروى لنا القصة من أولها الى آخرها . وكان يحدث لزوجته فى الموعد المعهود من كل عام حادث غريب ، كأنما كان ذلك عقابا له

على تقاعده عن المبادرة الى التماس البركة لـكوخه بعد ان وقع له ما وقع ، ذلك ان زوجته كانت تقفز صاعدة هابطة ولا تستطيع لذلك دفعا ولا ردا ، وتنطلق ساقاها على هواهما مهما جاهدت كأنما كان يدفعها الى الرقص دافع لا حيلة لها فيه ! .

تم الجـــزء الأول ويليه
الجزء الثانى ان شاء الله



هذه الرواية

كان جوجول كاتبا روسيا كبيرا حلو الفكاهة ، تشرق كتاباته بالسخرية المريرة ، وله قصص قصيرة وروايات ومسرحيات قيمة ، وهو يعد صاحب الفضل الاول فى التقاليد العظيمة في الرواية التى رفعت الادب الروسى الى مرتبة الآداب العالمية .

نشا الكاتب فى اوكرانيا موطنه الحبيب ، ووصف حياة اهل الريف فيها ومناظرها الطبيعية الساحرة وصفا رائعا كان السبب فى ذيوع صيته في جميع انحاء روسيا ، وصور تصويرا ساخرا فكاهيا القصص الشعبية ومزج في هذا الوصف بين الواقع وتهاويل الخيال ، وفكاهته فى هذه القصص فكاهة مطمئنة طبيعية لا افتعال فيها ، وقد اصطنع فيها حياة البسطاء من الناس بمعتقداتهم فى الارواح والعفاريت واسواقهم ونوادرهم ولهوهم وعبثهم ، وهى تشبه فى ذلك كثيرا ريف مصر واهله .

وقد كتب هذا الجزء سنة ١٨٣١ وهو يضم مقدمة ظريفة بلسان بانكو مربى النحل، وقصة سوق سورو تشنستى ، وهى البلدة التى شهدت مولده ، وقصة ليلة عيد القديس يوحنا ، وقصة العذراء الغريقة ، وقصة الخطاب الضائع .